كلاديس مطر

قانون مريم

رواية

» اسم الكتاب: قانون مريم.
» اسم المؤلـفة: كلاديس مطر.
» الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-567-40-8
» الناشر: دار عقل للنشر والدراسات والترجمة.
» سنة الطباعة: 2019.

جميــع الحقوق محفوظة لدار عـقـل

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل للنشر والدراسات والترجمة
سوريا - دمشق - جرمانا - ص.ب: 249 جرمانا
هاتف: 00963115618956
00963115637060
خلوي: 00963932832010
aklpublishing@gmail.com

(١)

اسـمي مريـم. مـن ناحيـةِ النسـب، ابنـةُ عائلـةٍ سـوريةٍ متعلمـة. مـن ناحية حُسـن الطلعـة، يقـولُ خطيبـي اللبنانـي حـازم إننـي أجمـلُ امـرأة وقعـت عينـاهُ عليهـا. مـن ناحيـة الثقافـة، لم أعد أذكـر عنوان شـهادتي الجامعية لأن مـا حصّلته لاحقـاً مـن تعليـمٍ ودراسـة كان أهـمّ بكثيـر. مـن ناحيـةِ الديـن، مسـيحيةٌ بالولادة وعلمانيـةٌ بالقناعـة. مـن ناحيـةِ الحريـة، مدلّلـةٌ في بلـدي، وعيتُ علـى الدنيا في الوقـت الـذي تـمّ فيـهِ تعديلُ دسـتور البلاد فأتى لصالـحِ المرأة وحريـةِ الأديان. أنا امـرأةٌ، يقـولُ الدسـتور، «تكفـل الدولـة مسـاهمتي في كل أشـكال الحيـاة، وتعملُ علـى إزالـة كل القيـود التـي تمنع هذه المشـاركة». مـن ناحيةِ السـعادة، انتصرتُ مـرةً، عندمـا كنـتُ فـي الثلاثيـن، علـى نوبـةٍ عصبيـةٍ كادت تـودي بي، بسـببٍ من قـوة إرادتـي وتمسـكي بالحيـاة. أما مـن ناحية الحـب، فمكتفيةٌ بما لـديّ مع ميلٍ دفيـن غيـر مفهـوم يتـراءى مـن وقتٍ لآخر، يسـرّ لـي بالعـزوف عـن كل الدنيا.

أقطـنُ فـي مدينـةِ اللاذقيـة علـى مسـافة 250 كيلومتـراً من بيـروت، مدينة حـازم الجميلـة. يربـطُ بيننـا دربٌ سـاحلي متوسـطي طويـل يمتلـئ جانبـاه بخيـم الخضـار البلاسـتيكية الكثيفـة، وآثار المعـارك القديمة المطفأة التي اشـتعلت فيما مضـى، ولهجـات محليـة متشـابهة، وخيـم للغجـر، ومعامـل تسـمم الجـو بالدخان

المتصاعد من مداخنها العتيقة. «تفصل» بين المدينتين أيضاً خيوطٌ من القرابة العائلية ذات الألقاب المتشابهة التي قطعتها إلى نصفين المعاهدات الفرنسية والإنكليزية في الربع الثاني من القرن الماضي، الأمر الذي يشبهُ جدار فصلٍ افتراضي، كرستهُ هذه النزعات الوطنية الحادة اللاحقة.

كانت اللاذقية قريةً صغيرة تسمى راميتا تابعة لولاية أوغاريت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد تمتدُ من المرفأ الحالي وحتى (تل الطابيات)[1]، تمتلئ بالصيادين والمراكب الصغيرة التي كانت تعودُ مع أفولِ الشمس وهبوبِ نسائم الليل الرطبة. أخذت راميتا الصغيرة تنتقلُ من يدٍ إلى أخرى، وفي كل مرةٍ كان غُزاتها يبدلونَ اسمها ويعطونها سمةً أو يلقونَ عليها حظوةً ما إلى أن دخلها العرب فأطلقوا عليها (لاذقية العرب) لتمييزها عن بقيةِ المدن البيزنطية التي كانت تحملُ نفس الاسم. ولم يشفع للمدينة أن النقودَ البرونزية والفضية كانت تُصك باسمها عندما كانت هيلينية، أو معفاةً من الضرائب وتتمتعُ بحصتها من الحنطة عندما كانت رومانية، أو من انهيارها إثرَ زلازلَ كبرى كانَ سادسها عام 1822م عندما كانت عثمانية حيث انهارت أبنيتها وجزءٌ من بُرج مرفئها وأصبحَ من العسيرِ لرئةِ المدينة المائية أن تستقبلَ وتودعَ المراكب التي كانت تأتي واثقةً لتنقلَ (تبغَ) المدينة التي اشتهرت بهِ في كل الدنيا والذي كانت تخزنهُ في مستودعاتها بالقربِ من المرفأ في مكانٍ

(1) حي الطابيات: هو أحد الأحياء القديمة الراقية في مدينة اللاذقية، القسم الشرقي من الحي يعدّ منطقة شعبية ويتفرع منه عدة شوارع وأزقة أهمها مشروع الطابيات الحديث وحي القصور، ويعد هذا الحي من أكثر الأحياء ارتفاعاً في المدينة بعد حي القلعة، كما يُعتقد أن التسمية جاءت من جمع كلمة طابية التي تعني المكان المرتفع. (ويكيبيديا)

.

سُـمّي (خـان الدخـان)، والذي تحولَ اليـوم إلى متحـفٍ للمدينة ممتلـئ بالتماثيلِ الرومانيـة المفقـوءة العينين، العاجيـة، الراضية والمقطوعةِ الأيـدي، ولُقى فخارية وحُلـي حزينـةٍ صَدِئَـت بفعـل القِـدَم، وخرائـط وبقايا أسـلحة، ورائحة الفرنسـيين الذيـن كانـوا يسـتعملونَ المـكان كمركـزٍ لمُتصرفيتهم.

تعرفـتُ علـى حـازم فـي اللاذقيـة، قبـلَ مقتـلِ الحريـري بشـهرين. كانَ قـد أتـى مـن بيـروت فـي زيـارةِ عـزاءٍ لأحـدِ أصدقائه فـي المدينـة. لمحتهُ جالسـاً في آخـرِ صـفٍ يفصـلُ مجلس الرجـال عن النسـاء، بينمـا كانَ يفصلُ بينـي وبينه ثلاثة كراسـي فارغـة وإحسـاسٌ يقينـي مـن قبلـي أنّ عالمـي هـو خـارج إطـارِ الحُـب وإقامـة العلاقـات العاطفية.

حيـنَ توجـهَ إلـيّ بالحديـث اسـتغربتُ نبـرةَ الودّ في صوتـهِ، وكأنـهُ يعرفني منـذُ زمـنٍ بعيـد. لقـد كانَ أكثـرَ وسـامةً مـن قدرتـي علـى التطلـع إليه. أمـا صوتهُ فقـد سـمعتُ فيـهِ الألعـابَ الناريـة فـي سـماء بيـروت، بيـروت التـي أعرفهـا كمـا أعـرفُ باطـنَ كفـي. وهكذا، اسـتدرتُ لأجيبَ على أسـئلتهِ البسـيطة والغريبة التي لـم يكـنْ لهـا أي مبـرر سـوى هـذا «الود» الـذي انفجـرَ فجأةً فـي مـكانِ العزاء.

أكملنـا حديثنـا فـي نفـسِ المسـاء وهو في طريـقِ عودتـهِ إلى بيـروت. كُنّا قـد تجاوزنـا الرسـميات خـلالَ سـاعةٍ فالتـةٍ مـن الزمـن، وهـا هـو الآن يقـولُ إنـه اشـتاقَ لـي وأنـهُ يتمنى العـودة في الحـال، وأنّ القمرَ المعكوس علـى صفحةِ بحرِ طرابلـس جعـلَ قلبـهُ ينفطـر. أيّ جنـونٍ هـذا فالتٌ مـن عِقاله!

عندمـا وصـلَ إلـى بيـروت كانَ قـد أخبرنـي أنـهُ رأى فـي الحلـم (القدّيسـة جـان دارك) تُريـه وجهـي علـى صفحـة غيمـةٍ أو ماءٍ مُنسـاب لكنهُ لم يكـنْ يعرف مَـن أنـا إلـى أنْ رآنـي فـي العزاء فعـرفَ أنّ الأمر يتجـاوز القضاء والقـدر إلى خطةٍ إلهيـةٍ مُسـبقة أسسـت للقائنـا أنـا السـورية وهـو اللبنانـي فـي لحظـةٍ هاربـةٍ من الزمن.

في صباحِ اليومِ التالي، اتصلَ من جديد ليقولَ لي إن مُعاهدات فصلِ البلدين كانت مؤامرةً شخصية ضدهُ وها هو الآن يعيدُ الأمورُ إلى نِصابها. كانت طريقتهُ في الكلام حاسمة وكأنّ كُل شيءٍ كان معدّاً سلَفاً في عقله. لقد وصلَتْه الإشارة من الحلم، حلم قديم وفجأةً يراهُ يتحققُ أمامهُ، إذاً، لمَ الدخول في هذهِ الخطوات التمهيدية التي تميزُ البدءَ في علاقة حُب. لقد كانَ حازم يقفزُ أميالاً في هذهِ العلاقة كُل ثانيةٍ بينما كُنت أنا بطيئةً كالسلحفاة بسبب خشيتي من هذا التسارع. طيبتهُ كانت حاسمةً جعلتني أقبلُ بكلِ ما قالهُ لاحقاً. فلم يمضِ شهرٌ إلا وقد اندمجتُ في هذا المناخِ الجميل الذي خلقهُ، حتى إنني قبلتُ كفّهُ المقلوبة التي دفعها أمامي عندما أسرَّ لي مرةً في لحظةِ صفاءٍ مُذهلة أنه كان «بطريركاً» منذُ ثلاثمئة عام في واحدة من المقاطعات الفرنسية. لقد كانَ حائراً وخائفاً من ذاكرتهِ كما قالَ لي. فهو لا يحلمُ وإنما يرى مشاهد بأكملها يعتقدُ أنها حدثت معهُ فعلاً في حياةٍ سابقة وأنا كنتُ جزءاً من أغلبها..! صدّقتهُ لأني أفهمُ تماماً كل كلمةٍ قالها ومن أينَ مصدرها. وهكذا أحببتهُ وتحولَ في يومٍ وليلةٍ إلى جزءٍ مني، خفيّ، غريب، قدريّ، لكن مريبٌ أيضاً. مع ذلك، جعلني هذا التسارع في علاقتنا أعاين كلّ ما يحصل وكأنّه أضغاث أحلام.

كانَ حازم محرّراً في الصفحة السياسية في (جريدةِ النّهار) اللبنانية التي يملكها (آل تويني)، وكان مواظباً على الظهور على شاشاتِ التلفزة اللبنانية كمحللٍ سياسي كلمتهُ مسموعة. لقد رأيتهُ عدةَ مرات فيما مضى قبلَ يومِ العزاء، فوضوياً في لباسهِ، محدداً في كلامهِ، صوتهُ أعلى من مضيفهِ، يحشدُ كُل الدلائل لكي يُوصلَ فكرتهُ بحماسٍ مُنقطعِ النظير. كثيراً ما كنتُ أردد أن هذا «الزلمة» يجب أن يكونَ زعيماً في بلدهِ الذي يتجاوز فيهِ عددُ الزعماء تعدادَ الشعبِ نفسه. لقد كُنتُ أراهُ من وراءِ الشاشة كأيّ رجلٍ لا تربطني بهِ

صلةٌ حقاً. فهذا الظهور «السياسي» لم يكن يسمح بالمطلق في تأملِ لونِ عينيه أو رجولة قسماتهِ أو أيّ شيءٍ آخر بالمطلق، فما كان يهمني من كلامهِ أو كلامِ غيرهِ هو كميةُ حبهِ لسوريا أو شتمه لها. غريبٌ كيفَ جعلتنا المهاترات والحروب نفقدُ موضوعيتنا مع الوقت بينما لاحت هذهِ المشاعر الصغيرة وكأنها هي كُل شيء.

لكني اليوم عندما أراهُ يُدلي بحديثهِ الحماسي في استديوهات صُمّمت بمكرٍ لتستوعبَ نِدّين لَدودين، فإني أفكرُ بهِ كرجلٍ قبلني ذاتَ مرة وهو في ذروةِ حديثهِ الجدي، وكأن لا علاقة لهُ بما يقول، كأنهُ ليسَ هو حازم القديم الذي كنتُ أراهُ فيما مضى على نفسِ الشاشة. إحساسٌ غريب وجميل في آنٍ واحد.

كان عالمي قبلَ حازم قد غدا مستقراً وأكثر رسوخاً. كنتُ قد أكملتُ الثانية والأربعين مكتفيةً بنفسي ومتصالحةً معها، أكثر إصغاءً وهدوءً وأقلَّ رغبةً في المماحكة والمجادلة وإثبات وجهة النظر مهما كلّفَ الأمر؛ الصفاتُ التي ميزت فترة العشرينات وجزء من الثلاثينات من عمري. كان في جعبتي أكثر من عشرين كتاباً مترجماً عن الإنكليزية وستة مؤلفاتٍ بالعربية، وإحساس مكتمل باليقين تجاهَ شيءٍ ما. كان الأدبُ مثلَ ملاذٍ أخيرٍ في طريقٍ بدأتُ أعرفُ كيفَ أتنبّأ القادمَ فيه. مع ذلك، من يجرؤ على الادعاء بأنّهُ نضجَ تماماً في هذهِ الحياة، فوراء هدوئي كُنتُ أشعرُ في كل مرةٍ أنني أنثى طير بعيون صقر وقلب مريم العذراء؛ لربما كان هذا وصفٌ يناسبُ كلَ امرأة سوريةٍ لا تعرفُ كيفَ تنامُ في مكانٍ كانَ مسكناً للصوص لفترةٍ طويلة.

(2)

طلبَ مني حازم بعدَ يومين أن أُرسل مقالاتي إلى الجريدة متى أشاء وأن أُسهمَ في قِسمها الأدبي. كانَ الإغراءُ كبيراً، فها هو الحب يأخذُ شكلهُ الأكثرَ تعبيراً ورسوخاً، ويفتحُ أبواباً وفرصاً كبيرة للقائنا المستقبلي. لكنّها (جريدةُ النهار) وليست أيةُ جريدةٍ أخرى. فالنهار ممنوعةٌ من الدخولِ إلى سورية بسببِ موقفها المتحامل والمتطرف ومُناوَأَتِها للوجودِ السوري في لبنان، لكنّ صفحتها الثقافية كانت نخبويةً بدرجةِ امتياز. فآل التويني جميعاً ممّن حملوا الجريدة على أكتافهم ابتداءً بالجد وانتهاءً بالحفيدة كانوا يعلمون أن المدخلَ إلى السياسة هو الإعلام وليسَ العكس، ولقد برعوا في ذلك جيداً لأكثرَ من نصفِ قرن. لقد كان هذا مدخلُ حازم أيضاً. كنتُ أرى بريقَ عينيه يلمعُ كل غفلةٍ وهو يشرحُ وجهةَ نظرهِ بحماسٍ على التلفزيون، هذا الحالم المؤمن، هذا المتقمص، هذا البطريرك الفرنسي القديم بثوب صحفي لبناني معاصر، هذا العاشق القَدَريّ لامرأةٍ سوريةٍ بأمرٍ من قديسةٍ رآها في الحلم، وهذا الطفل المتمرد الحنون.

كانَ الطريقُ ما زالَ سالكاً بين لبنان وسوريا قبلَ شباط 2005م، وكانَ جوّ الود الحذر المخنوق ما زالَ منتشراً في الهواء وراكناً تحتَ الرماد. فليست

الحروب هي فقط من باعدَ بينَ البلدين وإنما الاختلاف في أسلوب الحياة. فاللبناني، كما نراهُ نحن، أكثر لهواً منا وحباً للحياة، وأقلّ درامية. إنهُ بالنسبة إلينا «قطّافُ ورد شمّامُ هوا»، بل إننا نقولُ عنهُ أنهُ مستعدٌ أن يصرفَ آخر قرشٍ في جيبهِ على سهرةِ عشاء، أو شراءِ قطعة ثيابٍ جديدة. إنه فوقَ هذا وذاك يحبّذُ علناً الطريقة الأوروبية في الحياة فيسامحُ العلاقات الحرة بين أبنائهِ من الشباب والبنات، ويفاخرُ في تمليحِ كلامهِ بالفرنسية وبسمعتهِ في فنِ الخدمات والإدارة والأزياء وتصفيف الشعر والميل للفن بكل أشكالهِ. اللبناني، كما نظنهُ، يختلفُ عن نسيجِ الشخصية العربية اختلافاً ظاهراً جلياً، بل أن بعضَ اللبنانيين يتعالون على هذا النسيج ويعتقدون أنهم أعلى مرتبة وجدانية منه. إن طبيعة البلاد الفرنكوفونية ومناهجها التعليمية الخاصة جعلت من هذه الشخصية ما هي عليه. اللبناني «عيّيش» كما نقولُ عنه بحسرةٍ في سوريا، وهو أكثرُ قدرةٍ على التعاطي مع الديمقراطية. فها هي النخبة السياسية في بلدهِ تُكرر ظهورها اليومي على شاشات التلفزة المتعددة لديهم والتي تمثلُ كل واحدة منها تياراً سياسياً أو حزباً أو طائفةً، تتحدث على هواها وتقول آراءها وتستقبل من تشاء بينما لا يوجد نخبة سياسية لدينا يمكن لها أن تفعلَ الشيء ذاته، بل إنه ولفترةٍ طويلةٍ لم يكن هناكَ إلا التلفزيون السوري كمصدر رسمي ووحيد للأخبار، وحينَ ظهرت القناة الثانية باللغة الإنكليزية كانَ الأمر يشبهُ قفزةً وجدانيةً حقيقيةً في نفوسِ السوريين الذين رأوا آنذاك أنهُ آن الأوان لكي نفتحَ نافذةً صغيرةً على العالم الذي كان لفتراتٍ طويلةٍ يمرُ بالقرب منا غير مكترث. مضحك كيف ربطنا شعبياً هذا التصور عن اللبناني بتوفر الحرية لديهم وخلوها من سوريا، مستسلمين لكثيرٍ من الأفكار المشوشة عن مصدر هذه الحرية، فتارةً نقول لأن بلدهم ذا طابعٍ مسيحي، ومرةً أخرى نقول لأنهم تبنّوا الأسلوب الغربي في الحياة. أما بعض المثقفين

لدينا فيعتقدون أن الأمر أكثر عمقاً من هذا وأقوى تجذراً، فلا الدين ولا الحياة الغربية ما تركَ بصمة الحرية على اللبناني وإنما لكون دستور البلاد يميلُ إلى المدنية بطبيعتهِ، الأمرُ الذي رفضهُ آخرون ورأوا أن المشكلة هي تماماً غياب هذه الحرية كما يجب أن تكون بسبب التعصب المسيحي الأخرق.

أما أنا فكنتُ أحبّ لبنان من دونِ أن أفكر لماذا أحبه. لقد كانَ جزء من عائلتي يقيمُ فيه، وهكذا فلقد كانَ السفر إلى بيروت لملاقاتهم يشبه «الذهاب» إلى حيّ آخر. لقد اعتدت زيارتهُ منذُ أن كنتُ طفلةً صغيرة وبشكلٍ متكرر كل عام، فرسخت رائحتهُ في روحي وأبَت الرحيل. لقد كانَ هذا الجزء الملون من الحياة مقابل حياتي في اللاذقية التي كانت تشبهُ الأفلام القديمة بالأسود والأبيض. أما اليوم، فلقد انعكست الصورة، فلم أعد أتصور العيشَ خارجَ سوريا، فما يتطلّعُ إليه وجداني بدأتُ أعثرُ عليه اليوم فيها، هي الأرض المنتعشة بتؤدة ورويّة، تماماً كحازم الذي كان مكانهُ في وطنهِ يروقُ له لدرجةِ الهوس، بل أن كلمتيّ «لبنان ولبناني» لا تُبارحان حديثه، فكان بلدهُ بالنسبةِ إليهُ نقطة الانطلاق والعودة ومصدر الحسرة ومكمن الأحلام كلها.

كان ما زالَ ينتظرُ رداً مني على قبولِ التكليف غير الرسمي بهذهِ «الوظيفة». قالَ لي في آخر حديثٍ هاتفي بيننا:

- اقبلي.. لن يعتقلكِ أحد إن أرسلتِ مقالاً أدبياً أو نقدياً.. الكل يفعلون!

- ليسَ هذا ما أفكّرُ به!

- إذاً!!!

- فقط الأمرُ غريبٌ بالنسبة إلي..!

- أخافُ عليكِ من هذا الطابور الذي تسيرينَ فيهِ معصوبة العينين.. افتحي عينيكِ للدنيا.. إن الولاءَ للوطن أمرٌ آخر تماماً..!!

- ماذا تقصد؟

- أقصدُ أن سوريا بلدك الجميل لن يضيرهُ إن كتبتِ في جريدة...

- تشتمه؟

- لا طبعاً..! الـولاء للوطـن يكـون فـي الحـوار الصريـح معـه وليـس بسـترِ العيـوب!

انتهـى حديـثُ التيـه بينـي وبينَ حازم تلـكَ الليلة ولم ينتهِ الحـب. لكنهُ في نهايـةِ الأسـبوع، اتصـلَ بـي بعـد أن اجتـازَ الحـدود بسـيارتهِ وقـالَ إنهُ فـي طريقهِ إلي.

التقيـتُ بحـازم فـي واحدةٍ مـن مقاهي الرصيـف الجميلة فـي اللاذقية. كانَ الزمـن شـتاءً والأمطـار الخفيفـة تغزو كل قليـل أفقَ المدينـةِ الناعسـة بينما كانت الأضـواء تشـعُّ مـن كل جهـةٍ فـي الشـارع الذي بـدا وكأنهُ مستنسـخ من أي شـارعٍ فـي مدينـة أوروبيـة حديثـة. أمسـكَ يـدي وأحكـمَ نظـرهُ في عينـيّ بعدَ أن شـربَ كأس المـاء دفعـةً واحدة:

- هنـاكَ حواجـز كثيـرة يجـب تذليلهـا، وأمور يجـبُ التداول فيهـا، ووجهات نظرٍ يجب اسـتبيانها!

ضحكـتُ مـن كلامـهِ. شـعرتُ وكأنـهُ يُدلـي بحديـثٍ صحفـي عندمـا تَلَفّـظَ بهـذهِ الكلمـات. نظـرت إليـه، فرأيتـهُ جـادّاً فيمـا يقـول لكنـي لـم أسـتطع منـعَ نفسـي مـن الاسـتمرار فـي الضحـكِ الخفيـف:

- الأمور أبسطُ مما تعتقد!

- لا، إنهـا ليسـت بهـذه البسـاطة. دعينـا ننسـى أننـا عشّـاق لوهلـة. أنـا أتحـدّثُ إليـك الآن وجهـاً لوجـه كصحفـي ومهتم بالشـأنِ السياسـي، وأنـتِ كأديبة لـكِ وجهـةُ نظـركِ فيمـا يحـدث.

- أسمعك!

مـرَّ ثُعبـان الوقـت بطيئـاً ملتويـاً بينمـا كانَ حـازم يقـصُّ علـيّ حكايتـه مـع

بداية الحرب اللبنانية التي عايَشَها كلها.

- (قبلَ عام من بدءِ الحرب، كنتُ أحضرُ مسرحية «نزل السرور» لزياد الرحباني. كان شاباً في السابعة عشرة من عمره وكنت أنا تقريباً في السّنِّ نفسه. لقد كانت المسرحية تتحدثُ عن مناخِ الحربِ القادمة والصراعات حيثُ بيروت غارقة في دماءِ أهلها. لقد استمعتُ خلالَ العرض إلى نشيدِ الثورة بينما كانت بيروت، سويسرا الشرق، تتغنى بفرطِ حرياتها وجميلات «شارع الحمرا» وآخر صرعات الأزياء. كان أمراً غريباً أن تتآلف أذنيّ مع نشيدٍ عسكري يحشدُ لحربٍ ما قادمة. لم تكن حرباً ضد عدوٍّ غريب وإنما كانت واحدة من حروبِ الأهلِ الطويلة والمؤلمة؛ حرب الأخوة وأبناء العم والجيران كلهم معاً. واليوم، تأتي أنتِ يا حبيبتي لتقولي لي إنّ كُلّ هذه التنبؤات التي تحققت يجب أن لا تنتهي، فترفضينَ مُجردَ الكتابة في جريدةٍ مثل النهار فقط لموقفٍ ساذجٍ منها؟ افتحي عينيك، انظري إليّ. لا نريدُ من كلينا معاً أن نكون متواطئين على بلدينا. لكن لنكتبَ أينما كان ولنكتب جيداً ولنقول الحقيقة ولو على قطع رقابنا. انظري إليّ يا مريم. أنا ما زلتُ بطريركاً لكن في بنطلون الجينز. لا تبتسمي هكذا! ما زلت أسمع نشيد الثورة في أذني. حتى إني أشمُّ رائحة شيءٍ قادم لا أعرف كنههُ بعد..! انظري حولك.. ماذا تغير..! مدينتك جميلة، عصرية، مشعة.. لكنهُ الخوف نفسهُ! هناكَ سوءُ فهمٍ كبيرٍ يا حبيبتي بالنسبة إلى تعريف كلمة وطن وولاء. الحبُ لا يكون بالتستر على العيوب وإنما بكشفها والشفاءِ منها مرةً واحدة وإلى الأبد).

أمسكَ حازم يديّ وشدَّ عليها وقالَ بتركيز:

- لن يحدثَ شيء في أي من بلدينا من دونِ أن يصيبَ الآخر. هذا قضاءٌ وقدر!

(3)

الطريـقُ إلـى بيـروت يشـبهُ الطريـق إلـى حتـفٍ معلـوم. الترقـب والانتظار الجميـلان، الوعـدُ بالحب والثياب الشـديدة الأناقة التي سـأرتديها هنـاك، والكتابُ الجديـد الـذي سـوفَ أهديـهِ لأصدقائـي الكُثر فيهـا واللحظات الحميمـة مع حازم، الرجـل الكامـل. بيـروت هديـةٌ فـي علبـة مـن القطيفـة والسـاتان. بنـى بيـروت سـكان مدينـة جبيـل منـذُ أربعـة آلاف عـام لتتحـولَ بسـرعة إلـى مملكةٍ مسـتقلة يحيمهـا ربٌّ خـاص بهـا اسـمه (بعـل بيريت)، صـورهُ كانـت محفورة علـى نقودها المعدنيـة الرنانة.

مـا زالـت الصخـور المرمية علـى جانبِ نهـرِ الكلب تحكي قصصَ الشـعوب التـي قطنـت فيهـا والجيـوش التـي جـارت عليهـا بجحافلهـا ابتـداءً مـن المصريين وحتـى الحلفـاء الأوروبييـن الذيـن انتشـلوها مـن بيـن الأيـادي العثمانيـة، إلـى الفرنسـيين الذيـن تركوهـا حائـرةً وراءهـم فـي منتصـفِ القـرن الماضـي.

كانـت بيـروت تُعـرف فـي زمـنِ الرومـان باسـم (المسـتعمرة الممتـازة) ليشـجعوا النـاسَ علـى الإقامـةِ فيهـا، بـل إنّ بنـاءَ مدرسـةٍ للحقـوق في تلـكَ الأيام الغابـرة فيهـا جعلهـا تُلقـب بـأمِ الشـرائع ومُرضعة العلوم، هـذهِ الأم التـي لم تعثرْ علـى أمهـا لاحقـاً فـي أيّ مـن مسـتعمريها اللاحقيـن وطالبـي ودّهـا ومغتصبيهـا

باسـم الحـب وقاطعـي رأسـها باسـم الغيـرة.

لقـد هدّتهـا الـزلازلُ فـي الحقب التاليـة كما فعلت بـكلِ السـاحل الكنعاني الطويـل وأرجعتهـا إلـى قريـةٍ صغيـرة لتعـودَ مجـدداً مدينـة بمواصفـات الألـم والزحـام إلـى أن دخلهـا العـربُ الذيـن حطـوا رحالهـم فيهـا بعـدَ طـولِ انتظـار.

يفهـمُ العـرب الحـبَ بطريقـةٍ دراميـة تفجيريـة لا مثيـلَ لهـا. إنـهُ الحـبُ المترقـب المشـروط ومحبـوس الأنفـاس مثـلَ حُبـي أنـا وحـازم؛ الحـب المنكـوب بالرومانسـية العاقلـة والمحسـوبة. لقد أحـبّ معاوية بن أبي سـفيان بيروت فتركَ رجالـهُ يحصنوهـا بالقـلاع ويرممـون جروحهـا خوفـاً عليهـا مـن الرومـان، بـل إنـهُ حولهـا إلـى قاعدةٍ عسـكرية لحملاتهِ وألحقها بدمشـق وملأ السـاحل السـوري كلهُ حتـى بعلبك بالفرسـان.

أمـا عندمـا أغـارَ الصليبيـون عليهـا، فقـد أزهقوا روحهـا من جديـد فانهارت قِلاعهـا وقُتـل أهلهـا وألحقوهـا بالقـدس اللاتينيـة حينـذاك. لكـنّ صـلاح الديـن الأيوبـي مـا لبـثَ أن اسـتعادها وأعادها إلى دمشـق من دونِ مشـورةٍ مثـلَ قدرٍ لا فـكاكَ منـهُ. هكـذا، أخـذت بيـروت تنتقلُ مِـن حضنِ صليبـي إلى حضـن مملوكي آخر حيثُ امتلأت بالمسـاجد والقيسـاريات وكذلك بالشـعرِ والأدب إلى أن تلقفها الحضـنُ العثمانـي عـام 1516م. لـم تكن المدينـة عاهرةً لكنها كانـت مغلوبةً على أمرهـا بسـببٍ مـن هشاشـتها وجمالهـا كأنثـى لا حـولَ ولا قـوةَ لهـا. إنهـا مُغريـة وتوحـي بالفتنـة القاتلـة المذنبة.

غالبـاً مـا كانـت تختلطُ علـيّ الأحداث التـي وقعت على طولِ هذا السـاحل المتوسـطي العتيـق، فقـراءةُ التاريـخ الشـامي ليـسَ أمـراً بهـذهِ السـهولة، فحيـنَ كانـت تقـعُ الـزلازل كانـت تطيحُ بـهِ وبما عليـه من عُمـران، وحينَ كانـت تجتاحهُ الغـزوات كانـت تلحـقُ مُدنهُ الواحـدة بالأخرى بخفةِ السـيف، أما الملـوك والقادة العسـكريون والأمـراء الذيـن تناوبـوا عليـه فـكان كل منهـم يتمنـى أن يحضنَ هذا

الساحل ويبقيه لديهِ إلى الأبد. لقد تركني التاريخ أفهمُ أن بيروتَ عاشت قصةَ حبٍ طويلةٍ مع عُشاق كُثر شغفوا بها حتى الموت، موتها وموتهم معها.

حينَ استطاعَ فخر الدين المعني أن ينتشلَ بيروت وكسروان من الحاكم العثماني بدأ الفصلُ الحاسم من تاريخِ مدينة حازم. لقد جمعَ كل أجزاء البلاد اللبنانية في أغلبِ بقاعها المعروفة اليوم كأولِ أميرٍ حقيقي للبنان بدهاء منقطع النظير، معتمداً على المال والقوة والمصاهرة، منفتحاً على أوروبا ومستعيناً بكل خبراتها وبانياً هذه البقعة من العالم بشكلٍ لفتَ أنظارَ العُثمانيين الغافية التي تركتهُ يصولُ ويجولُ فيها منفرداً. لقد تركَ هذا الأمير المراكب التوسكانية تُنزل حمولتها من البنادق والمتفجرات في مرافئ صور وصيدا المتواضعة وتقلّ بدلاً منها الصوف والحرير والصابون بعدَ أن وقعَ اتفاقية مع أميرها طلبَ فيها جوازَ سفرٍ ومراكبَ شخصية لتقلّ أموالهُ إلى الخارج وكذلكَ مرسوماً من البابا ليجمعَ تحتَ جناحيه كلّ موارنةِ البلاد. لكن نهاية المعنيين لم تأتِ على يدِ العثمانيين وإنما على يدِ أخوالهم آل شهاب الذين كانوا يستضيفون الأمير أحمد، آخر الأمراء المعنيين، فقتلوهُ بالسّم لتُلحَقَ هذه الإمارة الجميلة بطرابلس الشام مرةً أخرى.

جعلني حُبي لحازم أقرأ التاريخ، ولقد فعلت هذا بكثيرٍ من الشغف الذي لم أتوقعهُ فيَّ. لقد أردتُ أن أتعرفَ على هذهِ البقعة من العالم التي قالَ لي مرةً إنني سأدفنُ فيها مشيراً بإصبعه إلى مكانٍ في منطقة غزير الجبلية المطلة على البحر.

- «هنا سيكون قبرك».

- قبري!

- نعم، نحنُ الآن في منطقتي ومسقطِ رأسي والمكان الذي سأموتُ فيه وأدفنُ أنا وعائلتي..!

نظرتُ إليهِ لأرى بأي مزاجٍ يتفوهُ بهذهِ الكلمات، فرأيتهُ جاداً فصمتُّ مبتسمةً أفكرُ في موتي القادم في هذه المقبرة الغارقة بين الشجرِ والمُطلة من علٍ على البحر، بحري وبحر حازم، بحرنا المتوسط.

حين دخلَ المصريون المدينة في النصفِ الأول من القرن الثامن عشر كانوا قد جمعوا تحتَ لوائهم كلّ البلاد السورية من بابها لمحرابها. لقد هدّوا السور المحيط بمدينة بيروت تاركين سكانها يبنون ويتمددون خارجه فتضاعفوا عدداً وتوسعت تجارتهم. لكنّ المدافع الإنكليزية ما لبثت أن أيقظت المدينة في إحدى الصباحات لتلفّها من جديدٍ الغلالة العثمانية بكلّ ما فيها من طرابيش وشوارب مصبوغة ولهجة خاصة، كما عادت إلى مرافئها المراكب الأوروبية التي أخذت تكبّ فيها بضائعها والأفكار.

قالَ لي خليل، السائقُ اللاذقاني الذي كانَ يُقلّني إلى بيروت بلكنتهِ البطيئة الممطوطة، وهي لكنةٌ تميّزُ أغلبَ سكان مدينة اللاذقية، إنهُ يفضلُ أن تدهسهُ سيارة في طريق عودتهِ وأن يموتَ مثلَ الكلب على هذا الطريق الذي يعرفهُ كباطنِ كفهِ، على أن يعودَ إلى سوريا. لقد كان خليل سائقاً ثرثاراً نموذجياً، ما إن يصعد إلى السيارة ويذكر كلمةَ الله قبلَ الانطلاق حتى يبدأ بالنقّ والنّقد والشتائم. لقد عملَ خليل ثلاثين عاماً على طريق اللاذقية - بيروت عدا فتراتٍ قليلةٍ متباعدةٍ أثناء الحرب الأهلية في أواخر السبعينات وبداية الثمانينات من القرن الماضي. كلّ يومٍ يستيقظُ في الخامسة صباحاً ويبحث عن الركاب واحداً واحداً ليخرج من المدينة في السابعة أو أكثرَ بقليل. وعلى الرغم من أن لباسهُ المهمل وفوضويتهُ وصوتهُ العالي والشتائم توحي برجلِ شارعٍ بسيط، إلا أن الركاب كانوا يخافونَ من جرأتهِ في النقد. لقد كانوا يعتقدونَ بكلّ بساطةٍ أنهُ مُخبرٌ يقولُ ما يقولهُ لكي يصطاد ركابهُ مع أنه لم يحدث هذا مطلقاً خلالَ السنوات الطويلة التي قضاها في السفرِ والشتم

وحمل الحقائب وشراءِ أغراض التواصي. لقد عاشَ خليل عمرهُ عازباً يتحدثُ عن خطيبةٍ وهميةٍ لا ترضى بهِ وتؤخر عن عمدٍ موعدَ زواجهما على الرغم من جيوبه الممتلئة وملكيته لمنزلٍ «طويلٍ عريضٍ تلعب فيه الخيل»، كما يقول.

حينَ أنزلَ حقائبي أمامَ باب البيت في منطقة جونيه، نظر إليّ مبتسماً وقالَ بلهجتهِ الممطوطة:

- «خلّي الأجرة علينا آنسة. إنتي حِملك قليل والله، لو شلتك على راسي ما قليل. يعني ما متل غيرك.. بيروحوا فاضيين بيرجعوا محملين. الله يلعن هديكِ الساعة اللي صُرت فيها شوفير.. الله يسامحو أبوي ورّتني هالمصلحة الزفت أنا وأخوتي..!»

لم أعرف بماذا أرد. هززتُ رأسي، شكرتهُ ثم دفعتُ لهُ وذهبت.

التقيتُ حازم يومَ وصولي في المساء. حضنني وقال:

- عندي لكِ مفاجأة. لا تنظري إليّ هكذا.. لن أقولَ لك! غداً تعرفين.

كانَ الصليبُ الذهبي الصغير يتراءى ويختفي من بينِ فتحتي ياقة قميصهِ بينما تفوحُ منهُ كل قليل رائحة مسكٍ رجالي خفيف. لم أكن أحب لبسَ الصلبان والأيقونات أبداً ولا حتى التعطر لكني لم أقلْ هذا لهُ. لقد كانَ حازم مارونياً مؤمناً تتدلى من مرآةِ سيارتهِ صورةٌ لمريم العذراء والقديس شربل وكذلك من قلادةِ مفتاحِ سيارتهِ. أما غرفةُ مكتبهِ في الجريدة فكانت هي الأخرى تحتوي على رموز دينية كثيرة على حائطٍ بالقرب من كمبيوتره وتحت زجاجِ مكتبهِ. لقد كانَ يبحثُ عن حلفاءَ طيفيين في هذهِ الصور والرموز بينما كنتُ قد انتصرت انتصاراً ساحقاً على فكرةِ الحليف ووصلتُ إلى نقطة لم أستطع معها لاحقاً حتى أن أفسرَ لهُ كُنه هذا الانتصار ومعناه. لم يكن حازم يقتنع بسهولةٍ بما أقول. كان يُعلّق على حديثي مبتسماً وهو يمسك بصليبه «حبيبتي.. لم يكن الإيمان يوماً سبباً في مشكلة»، فأردّ عليه

«لكـنّ الديـنَ نعـم». باختصـار، لقـد كنا معـاً نشـبهُ «حصيـرة القش»، متجانسـين متشـابكين ومنفصليـن فـي آن.

(4)

فـي عـام 1860م، اشـتعلَ جبـل لبنـان بنـارِ الفتنـةِ بيـنَ الـدّروز والنّصـارى. فـي تلـكَ السـنوات، كان الوضـعُ المتوتر قـد وصلَ لأوجـهِ، فلقد أخـذَ البريطانيون جانـبَ الـدروز والعسـافيين بينمـا وقـفَ الفرنسـيون إلـى جانـبِ النصـارى والاكليـروس المورانـي والقائمقـام بشـير بـن أحمـد أبـي اللمـع. أمـا العثمانيـون فكانـوا يضرمـون النـار فـي هـذه الفتنـة فتـارةً يميلـون مع هـؤلاء ومـرةً أخرى مع أولئـك إلـى أن ضجّـت باريـس ولنـدن بأخبـارِ هـذهِ الفتنـة فـازدادَ التدخـل إلـى درجـةٍ لـم تكـن مسـبوقة.

لقـد كانَ علـيَّ أن أعـرف كيفَ بدأ كل هذا خصوصـاً أن والدَ جدي قد هربَ مـن تلـكَ المجـازر وأخـذَ عائلتـهُ من منطقـة ضهور شـوير واتجهَ إلى جبـلِ العرب ثـم إلـى قـرى جبـالِ العلوييـن علـى السـاحل السـوري ليسـتقرَّ أبنـاؤهُ فـي مدينةِ اللاذقيـة فـي مطلـعِ القـرن الماضـي. كانـت الدنيـا فـي تلكَ الأيـام «مفتوحـةً على بعضهـا» كمـا نقـول، والحدودُ الجغرافية شـبه واهيـة، بينما كانت الحـدود الدينية أكثـر وضوحـاً وتجـذراً. اليـوم، حيـن أفكرُ بمـا كان، أفهـمُ كيفَ أن «قانـون الطرف الثالـث» الـذي قـرأتُ عنـه فـي أحـد كتـب التحليل السياسـي هـو قانـون صحيح. لقـد كان هـذا القانـون يفتـرض أن كل خـلاف أو مشـكلة بيـن فريقيـن، شـريكين،

دولتيـن، منظمتيـن، إنمـا يكـون سـببها طـرف ثالـث دائمـاً. لقـد جعلـت الفتـن المفتعلـة اللبنانييـن يختبـؤون وراء رموزهـم والأطيـاف الباقيـة ويفقـدون الثقـة ببعضهـم البعـض مثـل حـازم المُعطـر والـذي ترنّ فـي عنقهِ قـلادةٌ دينيـة صغيرة. لا، لـم تتدخـل الأم الحنون فرنسـا لوقفِ هذه المجازر إلا بعـدَ أن «طلعت أرواح» سـبعمئة مسـيحي مورانـي إلـى ربها وليعـودَ جبـلُ لبنان سـنجقاً عثمانياً مسـتقلاً.

كان منظرُ خليج جونيه مُبهراً من شـرفة المنزل في شـهر شـباط من السـنة. الشـمسُ الرطبـة كانـت عاكسـة علـى صفحة الميـاه الزرقـاء الداكنة وعلـى رؤوس الجبـال القريبـة ممّـا جعلنـي أشـعرُ بأنـي مخطوفـةٌ بالألـق والحلم. حتـى أصواتُ المراكـب المتزحلقـة علـى المـاء كانـت تصلني مـن البعيـد ناعمةً ومنسـجمة مع المشـهد. أمـا في الشـارعِ المقابل فكانت الفتيـات يتنزهن بسـراويلهن وتنانيرهن القصيـرة وقـد تركـت شـمسُ السـنة الماضية سُـمرةً باهتـة جميلة على أجسـامهن والوجـوه وكأنهـن خارجـات للتـو مـن لوحات (مهـا بيرقـدار) العاريـة. ونظرت إلى الأفـق البعيـد فرأيـتُ تمثـال سـيدة حريصـا مطـلاً مـن عـلٍ علـى البحـر. فكّرتُ فـي حـازم ومفاجأتـه وشـعرتُ أنّ الوقـتَ يمـرّ بطيئـاً جـداً، وأنـي غير قـادرة على الاسـترخاء أكثر.

حضـرَ حـازم فـي الثانيـة بعـدَ الظهـر مُسـلّحاً بابتسـامتهِ التـي نمـت عـن أسـنان بيضـاء منتظمـة وفوضويـة فـي اللبـاس والأفـكار والحـركات. رأيتـهُ كتلـةً واحـدة نابضـة وأنـا أفتـح البـابَ لـهُ.

- تعالي فوراً.. لن أدخل.. المفاجأة بانتظارك.

- لم تقلْ لي أنكَ ستأتي في مثلِ هذهِ الساعة.

- لأنّ هذا جزءٌ من المفاجأة.... يا حبيبتي.

وأخذتْ سيارةُ حازم تتسلقُ الجبال وهو يغني أغنيةً فرنسية لتوني فالييـر

«Que sera ma vie sans toi... que sera ma vie si tu pars»[1].

على حينٍ كانَ يسرقُ نظراتٍ خاطفة باتجاهي ليرى ردةَ فعلي وكأنهُ يعرفُ ما يقومُ بهِ بينما كنتُ أبتسمُ وأنا أهزّ رأسي مستغربةً وراضيةً في آن.

توقفت السيارةُ في ساحةِ كنيسةِ سيدةِ حريصا التي كنتُ أنظر إليها منذُ أقل من ساعة من شرفةِ المنزل. انزلي، قالها بحماس. ما إن فعلتْ حتى سارعَ وخطفَ يديّ ثمّ شدّني إلى السورِ الحجريِّ الأبيض المحيطِ بالمكان والمطلِ على البحر من ارتفاعٍ شاهقٍ. نظر إليّ وقالَ بسعادةٍ ورجاء:

- هل تقبلين بي زوجاً؟

ومن دون أن يسمعَ ردي، أخرجَ من جيبهِ علبةً فيها خاتمان رقيقان من الذهبِ الأبيض حُفرَ عليهما تاريخ اليوم واسمينا. ألبسني خاتماً وأنا صامتةٌ وممتنة ثم مدّ يدهُ بالخاتمِ الثاني وقال:

- إذا وضعتِ هذا الخاتمَ في يدي سأكونُ ملكك حرفياً وروحياً إلى أبدِ الآبدين. ليسَ الخاتمُ ما يربطني بكِ وإنّما التاريخ والحب.

هل قال حازم التاريخ!!

أُعطي جبلُ لبنان وضعاً إدارياً خاصاً بعدَ أن هدأتِ الفتنةُ بين الدروزِ والنصارى. لقد أُعلنَ متصرفيةً ممتازة يُدار محلياً من قِبل حاكمٍ غير لبناني بينما «ألغت الدولةُ العثمانية جميعَ التقسيمات الإداريّة في البلاد السوريّة مع الإبقاء على الامتيازات اللبنانيّة، وجعلت سوريا الطبيعيّة كلها ولايةً واحدة مركزها مدينةُ دمشق». إذاً، عادت بيروت إلى حضنِ دمشق مرةً أخرى وعادَ أهلها يلتمسونَ من جديدٍ الانفصالَ عنها من حضرةِ البابِ العالي الذي

(1) الترجمة: كيف ستكون حياتي من دونك، كيف ستكون حياتي لو رحلتِ.

استجابَ لهذهِ الرغبة المتكررة القديمة فأعلنَ المدينة ولايةً وأُلحقَ بها دفعةً واحدة كلٌّ من بيروت وعكا والبلقاء وطرابلس الشام واللاذقيّة. إنها لعبةُ تبادل الأحضان والكرّ والفرّ التي لا آخرَ لها، لعبةُ الحبِ الشغوف والنفور الشديد والنزوات الخائنة التي فلقت هذا العالم الصغير الخصب إلى نصفين بل أكثر.

هل أرادَ حازم الزواجَ مني ليدفنني في مدينتهِ الجبلية ويرتاح إلى الأبد؟ سألتهُ هذا السؤال بهدوءٍ بينما نظراتي كانت مثبتة عليهِ ونحنُ نحتفلُ وحيدين بخطوبتنا في مطعم «الكاستيل» في منطقةِ الكسليك من بيروت الشرقية بحسبِ التقويم الحربي الأخير، هذا المطعم المحبب من قِبل الصحفيين والكُتاب والإعلامين وربما الجواسيس أيضاً.

- أرتاحُ منكِ! صعب. أنتِ قضاءٌ وقدر.

- ربما!

- عندما تصبحينَ زوجتي لن أحتاجَ لإقناعكِ في الكتابة بأي جريدةٍ تصدرُ هنا، وسيستعيدُ نصفكِ كيانهُ القديم وسيرتاحُ جدكِ الأول في قبره.

- ماذا تقول؟ المسافة بين بيروت واللاذقية لا تتجاوز المئتين وخمسينَ كيلو متراً! كيف تفكر هكذا!

- مريم... هذا التفكير السوري القومي لا أريدُ أن أسمعهُ بعدَ الآن!

- أنا أتحدّثُ عن واقعِ الحال البسيط!

- واقعُ الحال هو أننا في هذهِ اللحظة بلدان كاملان، نِدّان، تفصلُ بيننا حدودٌ دولية وتجمعنا اللغة! انسي كل المرحلة السابقة. لقد كانت جنوناً فالتاً من عِقاله. المجازر، الحروب، الاحتلالات، التدخلات، كلها الآن أوهام. تطلعي إليّ. انظري إلى يديكِ الناعمتين أينَ تستقران. إنهما بينَ يديّ. المشكلة يا حبيبتي إنني معتادٌ على الحرية وأنتِ لا، المشكلة أنّ بلدي ديمقراطي وأنتِ لا. الفرقُ بيننا ببساطة هو أنكِ خائفة وأنا لا. حسناً، حضّري مقالكِ غداً

للجريـدة وابعثيـه لـي «بالإيميل».

فـي عـام 1915م أخـذت فرقـةٌ مـن الجيـش العُثمانـي بالاقتـراب مـن جبـلِ لبنـان والانتشـار فـي مواقعـهِ الأكثر حساسـية. ومـا إن وصلت إلى محلـةِ الحازمية شـرقَ بيـروت حتى اعترضها العسـكرُ اللبناني باعتبـارِ المتصرفيةِ مسـتقلةً بإدراتها عـن الدولـة العثمانيـة. لكـنّ الفرقـة أكملـت تقدمها غيـرَ مكترثـةٍ باتجـاهِ المواقع التـي حُـددت لهـا لتلقـي رحالهـا في كُلّ جـزءٍ من أجـزاء لبنان. لقد سـاعدَ ترحيبُ الأهالـي بهـا بالزغاريـد والهُتـاف والزهـور علـى إتمامِ مهمتهـا بكلّ هدوءٍ ويُسـر!!

لقـد فكـرتُ كثيـراً بمـا يريد كلٌّ مـن اللبناني والسـوري فلم أصـل إلى طرفٍ لأي خيـط. لقـد أتعبتنـي قراءةُ التاريـخِ حقاً، أكاليلُ الغار كانـت تُوضعُ على رؤوسِ الحُـكام الأكثـر قمعيـةً مـن قبـل الشـعبِ ذاتـه. نحـنُ نحـبُ جلادينـا، نعشـقهم، نحلـمُ بهـم وننفـذُ طلباتهـم بـكل ممنونيـةٍ ورضـى، وحيـنَ يرحلـونَ ننبـشُ مـن خزائننـا وقلوبنـا الأسـرارَ والغصّـات المخبـوءة الباقيـة. إننـا صُنّاع خُرافتهـم بدرجةِ امتيـاز وأولُ قَتَلَتِهـا؛ خرافـةُ ميّزاتهـم المهولة ونظرهم الثاقب الأخـرق. إنني مبتليةٌ بتاريخـي العريـق، بهـذا الوَلَـه تجـاهَ أرضـي والذي يَنخرُ صـدري ليلَ نهار كسوسـةٍ لا تأبـى الرحيـل. إن أرضـي هـي صليبـي، وتاريخـي هـو وشـمُ الصلاةِ علـى جبيني وحـازم هـو قضائـي وقدري.

(5)

فتحتُ عينيّ صباحَ اليومِ التالي وأخذتُ أتأمّلُ خاتمَ حازم في إصبعي. أصبحتُ «مرتبطة»، هذا ما نما لعقلي في الحال. لقد عِشتُ حياتي وأصابعي وعُنقي أحرار في بلدٍ يقولُ عنهُ حازم إنهُ ليسَ حراً ولا ديمقراطياً؛ الكلمتان الأكثر سوءاً للفهم والأكثر توقاً إليهما في عالمنا العربي الحزين. لكن كيف لخاتم رقيق يزنُ بضعة غرامات أن يُثقل عليّ وكأنّهُ حجرٌ من حجارة الأهرامات؟

لستُ جديدةً على الحب فلقد عرفتهُ من قبل مرةً أو مرتين. كانت الأمور تحدثُ من دون مقدمات وبلا وعي، حتى إنني لم أكن أفكر في مرحلتي العمرية الصغيرة تلكَ ما هو انتماؤه السياسي أوعقيدته أو موقفهُ من قضايا كثيرة لأنهُ لم يكن لدي أنا شخصياً حينذاك انتماءٌ واضح أو موقفٌ تجاهَ شيء. لقد كنتُ ملتهيةً بأهدافي الصغيرة اليومية وتفاصيل أستغربُ اليومَ كيفَ كانت تُشكل لديّ همّاً ما ولو لثوانٍ. كُل ما كُنت أبحثُ عنه هو مستواه الثقافي وشيء من الحياء مثلي وقصّةُ شَعرٍ عسكريةٍ لا تُوحي باللهو. كنتُ آخذُ الأمورَ مأخذاً استسلامياً بعضَ الشيء، النضال والمعارضة والتحليق خارجَ السرب كانت أشياء غير واردة في قاموسي أو في قاموسِ أي أحد وكانت الحياةُ تشبهُ المقدر والمحتوم؛ تحدثُ كلَ يومٍ لأنها يجب أن تحدث. لقد كنتُ

غائبةً عن الوعي، شديدةُ الحساسية من دون داعٍ وربما انكفائية بعضَ الشيء.

لكنّ الأمور تغيرت لاحقاً، إذ مع كلّ حرفٍ كنتُ أقرؤهُ كانت تتسعُ حدقتاي ويستطيلُ عقلي وأفيقُ من غيبوبتي الطويلة إلى أن قررتُ أن الحبّ بطبيعتهِ لربما وُجدَ من أجلِ مراحل عمرية أكبر مما نعتقد. إنهُ ربما ليسَ مُعطى للشبابِ بحلتهِ العشقية الانجذابية وإنما هو بحاجةٍ لسنواتٍ من النضج قادرةٌ على استيعابه والتعاطي معهُ بعمقٍ وجمالٍ أكبر. وكما في الحب كذلك في الدين والسياسة وكينونتي كأنثى.

حينَ رأيتُ حازم أولَ مرة فكرتُ إن كانَ هذا هو حبّ سنواتِ الحكمة والنضج الذي أنتظره! لربما قد أَزفَ الوقتُ لشقِّ غلالةِ الاعتبارات الحزينة التي لم ينفع معها الصمت أو الاستكانة! لكني مرةً أخرى، لم أسأل عن انتماء حازم وإنّما بدأ الحب من دونِ مقدمات حثيثاً ومليئاً بالشكوك الصغيرة كأنني ما زلتُ في سنواتِ المراهقة الأولى. لقد رأيتُ الصليبَ على صدرهِ واكتفيتُ بذلك أنا التي عرفتُ بقوة كيفَ أُبعد حياتي عن الرموز الدينية والحلفاء الطيفيين. لم أتغير في الحب. هذا ما اكتشفتهُ لاحقاً وكانَ عليّ أن أقبلَ تبعات هذا اللاتغيير بشيءٍ من التسليم.

أرسلتُ مقالتي إلى حازم بعدَ ساعتين من استيقاظي. لقد أمضيتُ الليلَ أحاولُ أن أكتبَ في أمور أكثر أدبية وفنية وأن أُبعد عقلي عن شبكة السياسة التي تنضحُ ألماً وكذباً لكني لم أفلح حقاً. لقد وصلَ المقالُ إليهِ معنوناً بـ «العمال السوريون في لبنان» وانفجرَ أمامَ عينيهِ مثلَ قُنبلةٍ عنقودية. اتصلَ وقالَ بلهجةٍ مازحة:

- أيتها الحبيبة الصدامية!! في أي بابٍ تريدين أن أنشرها!

- ولا في أي باب! افتح باباً جديداً لها.

قال بتحدٍّ هادئ وبصوتٍ واثقٍ خفيض:

- هل أنتِ مستعدةٌ للظهور أمامَ الإعلام والتحدث عن هذا الموضوع؟

- .....!

- إذاً، لن أنشرها!

علمني هذا البطريرك الحديث كيفَ أنسجمُ مع نفسي. لربما لا يكفي أن نؤلّف الكتبَ والمقالات ونجعلِ صورنا تحتلُ مكانها في أعمدةِ الصحف. إنّ حازم يحاربُ علناً وجهاراً من أجلِ هدفٍ لطالما اعتقدتُ أنهُ مضلّلٌ وغيبي مع أنه مؤمنٌ به ويعلنُ ذلكَ على الملأ.

- تعالَ فقط. من أين «طلعت لي» في آخر هذا العمر يا حازم!

سمعتُ ضحكته الصاخبة ثم أغلقَ الهاتف لأغرقَ أنا مرةً ثانيةً في فوضى السرير وأبقى هكذا لوقتٍ طويلٍ أفكر.

(6)

فـي تشـرين الثانـي عـام 1918م عرفـت الحـرب العالميـة الأولـى خاتمتهـا. كانـت الدولـة العثمانيـة قد خسـرت الحـربَ بعدَ أربع سـنواتٍ من الصـراع المرير رأى العالـم فيهـا أهـوالاً تقشـعرُّ لهـا الأبـدان. لقـد غـادرت قطعان الأتراك دمشـق وحـلَّ محلهـا حكومـة عربية باسـم الشـريف حسـين بن علـي، أمير مكـةَ المكرمة الـذي قيـلَ أنـهُ تـمّ «تركيـب أجزائـه» فـي بريطانيـا العظمـى لكـي يُنهـي حكـمَ العثمانييـن فـي عربسـتان أو دار العـرب.

فـي هـدأةِ منتصـفِ الليـل، أيقـظَ أحدهم عمـر بـك الداعوق، رئيـس بلدية بيـروت آنـذاك، لكـي يسـلّمهُ برقيـةً مسـتعجلة كان الأميـرُ محمد سـعيد الجزائري قـد أرسـلها إلـى كل رؤسـاء البلديـات علـى السـاحلِ السـوري. قرأهـا وبقايـا النوم مـا زالـت فـي عينيـه ثـم مـا لبـثَ أن أبـرقَ إلـى والـي بيـروت اسـماعيل حقـي لكـي يعلمـهُ بهـا. لقـد كانَ نـصّ البرقيـة واضحـاً لا لبسَ فيـه، «بناءً على انسـحاب الحكومـة التركيّـة فقـد تأسسـت الحكومـة العربيّة الهاشـميّة على دعائمِ الشـرف. طمّنـوا العمـوم وأعلنـوا الحكومـة باسـم الحكومـة العربيّـة. اسـفكوا الـدم ولكـن بعـدل». اللـه وحـده يعرف ماذا كانـت تعني العبارة الأخيرة! سـفكُ الدماء بعدل!!

لقـد تـركَ والـي بيـروت ومعاونـوهُ الأتـراك المدينة بعـدَ أن أُذيعَ بيـان أعلنَ

فيهِ انتهاء الحكم العثماني مُعفياً كلّ الموظفين من التزاماتهم تجاهَ هذا الحكم الذي دامَ أربعمئة عام. استقلّ اسماعيل حقّي عربتهُ مغادراً المدينة بعدَ أن تركَ سيفهُ فيها. لقد عاشَ والياً يحكمُ في أجملِ مدينةٍ في الشرق وماتَ في مشفى مجاني للفقراء في مدينته اسطنبول. لقد انتهى الأتراك ها هنا. رحلوا كما سيرحل كل من ستطأ قدماهُ بيروت تاركاً أسلحتهُ وراءه والأحلام. لقد جعلتِ الاغتصابات المتتالية لهذهِ المدينة موهبةً في سفكِ الدماء بعدلٍ إلى أن أتى اليوم الذي أطاحت فيهِ حروبُ الأهلِ والجيران بهذهِ الموهبة فأغرقت الجميع بالدّماء.

لقد أمكن للبنانيّ أن يفسّرَ زوالَ هذهِ الدولة بمنطقٍ ديني خاص. فبعدَ الرحيل الهادئ لقطعان الأتراك ضربت المدينة هزةً أرضية نشرت الرعب والهلع بين سكانها فاعتقدوا إنما هي العناية الإلهية حزينة على نهايةِ دولة الخلافة الإسلامية أمامَ النصارى. ومما زادَ الطينَ بِلّة هو تحليقُ طائرتين إنكليزيتين في سماءِ المدينة، ضربتا المرفأ ونشرتا الذعر بين الناس وهكذا بدأت رحلةُ هروبهم إلى الخارج.

تُرى كيفَ يكونُ سفكُ الدماءِ بعدلٍ!! هكذا كنتُ أفكر وأنا أستقلُّ سيارةَ أجرة بألفي ليرة لبنانية للراكب إلى شارعِ الحمراء في بيروت لألتقي بناشرِ كتابي وصديقي في آن عبد السلام الحموي. لقد تركَ عبد السلام قريته في إحدى الجبال الساحلية السورية منذُ أن كانَ في الثامنة عشرة من عمرهِ وتوجهَ للدراسة في بيروت وبقي فيها إلى هذهِ اللحظة. إنهُ اليوم في الثامنة والستين من عمرهِ، لبناني الجنسية وصاحب أهمّ دار نشرٍ عربية في كل لبنان، وفوقَ هذا وذاك، كلمتهُ مؤثرة في الشارع ولها ثِقلها بين مراجعي سياسة المنطقة والمحللين. إن لكنة قريتهِ السورية القريبة من اللكنةِ اللبنانية سهّلت اندماجهُ في مجتمعِ المدينة لدرجةٍ لم يحاول أحد أن يتساءلَ فيما بعد عن

صاحبها أو عن موطنهِ الأصلي.

ما يربطني بعبدِ السلام ليست جذورهُ السورية، أنا لبنانية الجذور، وإنما طريقةُ تحليلهِ للأمور وفهمهِ لتاريخٍ اللهُ وحدهُ يعرفُ كيفَ يُفصّلُ أحداثهُ أو يُغربلها أو «يُعطي ما لقيصر فيه لقيصر وما لله لله». إنهُ يحملُ تاريخ لبنان الثقافي والسياسي للخمسين سنة الأخيرة في روحهِ حقاً. لقد التقى في مجالس سعيد فريحة الليلية مع أربابِ الفن مثل الأخوين رحباني وعبد الوهاب وفريد الأطرش وخليل حاوي وآخرين، وكان مؤسساً للكثير من المجلاتِ الشعرية والأدبية لينتهي مُحللاً سياسياً مرموقاً وصاحب أهم دارِ نشرٍ لبنانية في الشرق.

ليسَ لعبدِ السلام رموزاً دينية ليحتفظَ بها، كما لم أعثر على قلاداتٍ لحلفاء طيفيين في سيارتهِ أو مكتبهِ، ولم يكن يذكر اسم الله إلا في مناسباتِ التأفف والشتيمة التي كان بارعاً في تركيبِ ألفاظها بمهارةٍ لا توصف بينما هو غارقٌ في ضحكاتٍ متلاحقة تشبهُ صفيرَ قطار، فتختفي عيناهُ ويرتجفُ السيجار الثخين بينَ إصبعيهِ الغليظين.

استقبلني عبد السلام فاتحَ الذراعين. أشعرُ أنني ابنتهُ من كثرةِ ما يغدقُ عليّ من عاطفةٍ واهتمام. أقولُ لهُ إنهُ يُدللني من دونِ أن يعرفَ عواقبَ هذا فيردُّ بحسمٍ ومزاجٍ عالٍ إنهُ لو رآني أغلط فسيقطعُ رقبتي من دونِ تردد. أضحكُ لأني أعرفُ مسطرتهُ ومكيالهُ جيداً.

- «تفضلي يا ستي هذا كتابكِ الجديد.. مبروك».

نظرت إلى الغلاف فرأيتُ صورةً جعلتني أجفل. إنها لوحةُ (الشغيلة) لفنانٍ عُرف بميولهِ الاشتراكية اسمهُ (مورللي). لوحة رُسمت بالحبر الأسود لعمالِ مناجم متراصين في مغارةٍ ضيقة تحتَ الأرض.

- لماذا هذه اللوحة؟!

- لا أعرف. هي من جهةٍ تناسبُ موضوعَ الكتاب، ومن جهةٍ أخرى تناسبكِ أنتِ. ألم تقولي أن أتركُ أمرَ صورةِ الغلاف عليك؟

أطرقتُ لحظة وقلت:

- صحيح. على فكرة عليكَ أن تبارك لي أيضاً على أمرٍ آخر.

- ماهو؟

- خطبتي من حازم عبد الملك!

ينهضُ عبد السلام مصعوقاً:

- «حازم ما غيره، حازم عبد الملك ما غيره الصحفي في النهار!!»

- نعم؟ وهو يريدني أن أنشرَ مقالاتي في جريدتهِ وأن....!

- هل تحبينه!!

- كثيراً!

سقط الكتاب من يد عبد السلام. جلسَ على كرسيه الوثير وهو ينظر إليّ شبهَ مبتسم وكأنهُ غير مصدقٍ لما سمع.

- أحبهُ كثيراً... أقولُ لك.

عضّ عبد السلام على سيجارهِ وقالَ «مبروك» وهو ما زالَ شبه مبتسم غير مصدق.

التقى حازم وعبد السلام كثيراً فيما مضى في مناظراتٍ سياسية على الهواء وصلت حدتها إلى حدودِ الشتم والإهانة. كانَ مُضيفهما يعرفُ كيفَ يلعب لعبتهُ جيداً فقامَ بكل ما عليهِ لكي يستفزَّ كلّاً منهما الآخر، فيتعاركا ويحصل هو على راتبهِ الشهري مع ابتسامةِ تشجيع من رئيسهِ. لقد كان حازم وعبد السلام صورةً عن لبنان الذي يستعدُ لكي ينقسم بشكلٍ لم يعرفهُ تاريخ هذه المنطقة الحافل. لقد كانا زوبعتين متناقضتين لكنْ عاشقتين للبنان، كلٌّ على طريقتهِ.

(7)

اعتبرت الحكومة العربيّة الجديدة البلادَ السوريّة كلها وحدة سياسيّة كاملة ولبنان جزءٌ منها بلا استثناء. كانَ هذا خطأً دمشقياً فطرياً آخر بالنسبةِ إلى الحلفاء كلّفَ بيروت الكثير. لقد أرخت مراسيها أربعُ بوارجَ فرنسية وإنكليزية في مرفأ بيروت بكلِّ هدوءٍ ثم تسللَ جنودُها مثلَ النملِ إلى كل شوارع المدينة وعلى رأسهم الكولونيل (دي بيابات) الذي أرسلتْهُ الأم الحنون لكي يديرَ شؤونَ هذهِ المنطقة بعدما اقتسموا سوريا كلها مع الإنكليزي من دونِ عِلم الحكومة العربية الجديدة.

لقد كانَ تفكيكُ سوريا عملاً جراحياً مؤلماً لم تنشف جروحه إلى الآن ولم يكتمل مخاضُ ولادتهِ. لم تكن الوحدة الوجدانية لشرقِ المتوسط وهماً أو دجلاً وإنما حقيقةً بصم عليها التاريخ بأصابعهِ العشرة. وإذا ما كانَ هناك شيء من النزفِ من جرحٍ ما هنا أو جرحٍ هناك فلأنَّ ما كانَ يربطُ سوريا والأردن ولبنان وفلسطين والعراق والكويت وقبرص ولواء اسكندرونة وأجزاء أخرى من تركيا وأجزاء من الأهواز في إيران وشبه جزيرةِ سيناء في مصر وجزء من صحراء النفوذ في السعودية إنما لم يكن البتة أضغاث أحلام. لقد عرفَ هذا الشرق قديماً ثقافات كثيرة مثل السومرية والأكادية والكنعانية والفينيقية

والعمورية والآرامية والآدومية والفلسطينية واليهودية والمسيحية والإسلام، كما مرت عليهِ أقدامُ جحافل الإمبراطوريات المدججة بالأحلام والخوف مثل الآشورية والبابلية والأخميدية والسلوقية والبطلمية والرومانية والبيزنطية قديماً، ثم في العصور الوسطى تبدلَ نوعُ الشغف فأصبحَ دينياً مطرزاً بالكتب المنزلة والرايات والفتح فدخلها الراشدون والأمويون والعباسيون والفاطميون والصليبيون والأيوبيون والمماليك، لتنتهي حديثاً في الأحضانِ العثمانية والشوارب المصبوغة والروحِ المخنثة التي ولعت بالنساء والأثواب المقصبة والعمائم الاحتفالية والنصول التي تُركت فوقَ دكّةِ الخصورِ الذكورية المنتفخةِ التقية. وحينَ وصلَ شرق المتوسط إلى أيدي الأوروبيين عرفوا كيفَ يتعاملون معهُ تماماً. لقد نسوا في صالوناتهم الأنيقة الكلمات المنمقة وتقبيل أيادي السيدات والانحناء المتكلف وشرب الكونياك المعتّق، وتركوا لخيالهم العنانَ في انتقاءِ مناطق النفوذ، فقسموهُ إلى قطعٍ صغيرة في كل منها نِتفٌ من روحهِ بقيت حية، واستمتعوا تحتَ شمسهِ الدافئة بتخيلِ نسائهِ في وضعياتٍ جنسيةٍ كسولةٍ اللهُ وحدهُ يعرفُ متى يمكن أن نخلّصَ أوروبا منها.

عندما وطأت أقدامُ الكولونيل (دي بيابات) بيروت، أرسلَ ضابطين من قِبله لكي يقابلا شكري باشا حاكم المدينة ويأمرانه بإنزال العلم العربي من فوقِ سطحِ سرايا بعبدا، ففرنسا الحُرة لا تأبى البقاءَ تحتَ علمٍ مارقٍ من الآن فصاعداً. نهضَ شكري باشا من على كرسيه أمامَ الضابطين وقد امتلأ بالغضب والكياسة المصطنعة، واستلَّ مسدسهُ ووضعهُ أمامهما على مكتبه قائلاً: «مسدسي أمامكم ويمكن لأي منكما أن ينهي حياتي بطلقةٍ واحدة صغيرة إن شاء، ولكني لن أُنزل العلم.»

نزلتُ من مبنى عرنوق في شارعِ الحمراء ومعي كتابي الجديد. فكرتُ أن أتوجهَ إلى مكتب حازم في دارِ النهار وأفاجئه. نظرتُ حولي وأنا ما زلتُ

واقفةً على الرصيف أمامَ مدخل المبنى، وفي الحال ازدهرت ذاكرتي حينَ كنتُ في الرابعة عشرة ألحقُ بوالدتي في بداية السبعينات بتنورتها القصيرة المُشجرة وقميصها الضيق ونظارتها الشمسية العريضة التي كانت تغطي أغلبَ وجهها وشعرها الأشقر الجعدي، وهي تدخلُ وتخرجُ من المحلات المنتشرة فيه هنا وهناك، تحملُ الأكياس الممتلئة بالأحذية والثياب التي كانت تُعتبرُ آخرَ صرعةٍ في وقتها. لربما لم أعرف شارعاً في أي مدينةٍ عربيةٍ لاحقاً عرف مثل شهرةِ هذا الشارع الذي كانَ في يومٍ من الأيام «ممشى لجميلات هذا الشرق الحرائر». لم يكن للاذقية المتواضعة آنذاك هذا الألق الذي عرفه هذا الشارع أو عرفتهُ هي لاحقاً. وحين أتذكر مدينتي في تلكَ الفترة لا يستدعي هذا إلى ذهني أي شارع اللهم إلا «الحارة» التي يقطنُ فيها بيت جدي لأمي وأبي والذي قضيتُ أغلبَ سنين طفولتي فيها ألعبُ مع بقيةِ الأولاد. إن هذهِ الحارة المتواضعة الجميلة التي عطّرها الأجدادُ والأقارب والجيران بأصواتهم لا تمتّ بصلةٍ لسوقِ الحميدية عندما نقولُ دمشق، ولا للموسكي عندما نقول القاهرة، ولا طبعاً للحمراء عندما نقول بيروت، ولا حتى لشارع الآلام (فيا دولوروسا) عندما نقول القدس، لكنها كانت كل الدنيا بالنسبة إلي.

استقليتُ سيارةَ أجرة باتجاهِ دارِ النهار. كنتُ ألمحُ من نافذةِ التاكسي ذات السرعةِ البطيئة أفواج المُصلّين في وضعيةِ السجود يفترشونَ أرصفةَ شارعِ الحمراء بالقربِ من الجامعِ المُكتظ بهم، بينما المكبرات تصدحُ عالياً بالصلاة. نظرتُ إلى الكتاب بين يديّ وبدأتُ أتحسسُ الغلاف وأُقلب فيه كيفما اتفق بينما هدّني فكرٌ حزين لم أعرف مصدره. لمحتُ قرآناً مصنوعاً من الفضة المزخرفة يتدلى من مرآة السيارة وما هي إلا لحظات حتى ماعت الدنيا أمامَ ناظري وبدأت دموعٌ ساخنة تتدفقُ من عينيّ على مهل. لقد انكسرَ شيءٌ في داخلي مثل آنية كريستال ولاحَ قلبي على وشك التوقف.

(8)

ظهرَ مبنى (دار النهار) أمامي في ساحةِ الشهداء الواقعة في قلبِ الوسط التجاري لبيروت «كحرفٍ لا يُقرأ». كنتُ خائفة وكأنني امرأةٌ تخونُ زوجها للمرة الأولى لدرجةٍ شعرتُ بالعرق يسيلُ من باطنِ كفيّ المثلجة التي أمسكُ بها الكتاب. اتصلت بحازم على هاتفهِ الخلوي لكي يلقاني أمامَ المدخلِ ويرافقني إلى مكتبهِ لكنهُ لم يرد. نزلتُ من التاكسي وبدأتُ أكرّرُ الاتصالَ بهِ من أمام المبنى بعصبيةٍ بدأت تتنامى إلى أن ردّ أخيراً:

- حازم أنا تحت.. لا أعرف كيفَ أصعدُ إليك!

- سأكونُ عندكِ في الحال!

لقد أعدمَ جمال باشا السفاح في هذهِ الساحة أهمّ مناضلي ومفكري لبنان إثرَ هزيمة الدولة التركية، كما أعدمَ مثلهم في نفسِ الوقت في ساحةِ المرجة في دمشق. ماذا، إذاً، كانوا سيطلقونَ على هذه الساحة إلا ساحةَ الشهداء؟ وماذا كانوا سيملؤونها إلا بالتماثيل التي تحفظُ هذه الذكرى والتي ستشهدُ على دمارٍ كثيرٍ آت؟

احتضنني حازم بقوة وفرح وقبّلني قبلَ أن نستقلّ المصعد. كان يجب أن أخجلَ أو أتمنّعَ لو لم أكن في بيروت. إنها المدينة الخارجةُ عن سربِ

كل المدن العربية الأخرى والتي كانوا يجدونَ تبريراً لميوعتها لكونها عاصمة لدولة عربية يحكمها رئيسٌ مسيحي، على خلافِ العواصم العربية الأخرى التي كانت مسلمةً خِفيةً وعلناً وتتمتعُ بقوانين عيْبها الخاصة. ألهذا كانوا يأتون إليها من كل الجهات ويستلقونَ بحريةٍ تحتَ شمسها الدافئة، وعندما يخرجونَ منها يمزقونَ صورهم مع الحبيبات العابرات وينفضونَ غبارها عن نعالهم؟ بأيةِ طريقةٍ تُرى كانوا يحبون بيروت؟ هذا الحب الوله الذي طافَ بالغيرةِ والحسدِ وبالتوقِ لطعنها من الخلف بينما ثيابها معلقة في خزائنهم! «إحدى أهم ميزات بيروت هو أنهُ لا يمكن أن تُجَرَّ امرأةٌ أو رجلٌ عربيين إلى السجن إذا ما تبادلا قُبلة سريعة خاطفة أمام مصعد». هكذا مازحني حازم ضاحكاً ونحنُ نصعدُ إلى مكتبهِ في الطابق الثالث.

كان الجنرال اللنبي الملقب بـ (الثور الدموي) كومنداناً إنكليزياً ذا نظرةٍ حالمةٍ زجاجيةٍ تتطلعُ إلى اللامكان وشفاه رقيقة يعلوها شاربٌ قصيرٌ كثٌّ. لقد شُبّه بالكرباج لكثرةِ قسوتهِ في معاملةِ الجنودِ والضباط الذين كانوا تحتَ إمرتهِ. كانَ الرجل مُترئساً لقِسم الفرسان في الحملةِ التي قادتها إنكلترا ضدّ فرنسا لكنهُ ما لبثَ أن انتقلَ إلى جبهةِ فلسطين حيثُ كانَ الضجر هو عدوهُ الأخطر، كما قالَ (دي إتش لورنس) في مذكراتهِ عنه. وحينَ وطأت قدماهُ القدسَ في كانون الأول عام 1917م، كان الغازي المسيحي الثاني الذي يدخلها بعدَ الصليبيين. في السنةِ التالية، كانَ قد طردَ آخرَ جندي عصملي في البلد ليتركَ لهُ الطريق مفتوحاً إلى دمشق.

حينَ كَلفَ اللنبي ضابطاً إنكليزياً بإنزالِ العلمِ العربي من فوق سرايا «بعبدا» والناسُ نيام كانَ حلم الاستقلال قد دُفنَ في مهدهِ لتدخلَ بيروت وجبل لبنان وكل المدن السوريّة تحتَ الانتداب الفرنسي المباشر بحجةِ أن هذه الدول ما هي إلا تركة عاجزة من تركات العثمانيين وهي ليست قادرة على الوقوفِ

أمامَ الحياة الجديدةِ وحدها. وهكذا، خفقَ العلمُ الفرنسي لوحدهِ في سماءِ المناطق التي سُميت فيما بعد بـ «الكيان اللبناني ذي الطابع الخاص». لقد تفتّتت سوريا الطبيعية إلى غيرِ رجعة، أما تعدد طوائفها فقد سهّلَ إنجازَ مهمةِ الانقسام بخفةِ يد فنان؛ مناطق حمراء تحتَ الانتداب الإنكليزي، وأخرى زرقاء للفرنسي، وفلسطين هدية من القطيفة والساتان لليهود.

نظر حازم إلى غلافِ الكتاب وهو يبتسم غامزاً من قناة عبد السلام «يبدو أن ناشركِ يقرؤكِ جيداً. ألا تتمنينَ لو كانَ أصغرَ سناً مثلاً؟». لو كانَ حازم سورياً لتركتهُ للتو من أجلِ هذه الملاحظة الفجة. لكنهُ من «ثقافةٍ أخرى» لا تُلقي بالاً لمثل هذا المزاح في العلاقات. لقد كانَ عليّ أن أراعي الفروقَ الثقافية في الحب أيضاً وأن أتقبلَ الكثيرَ من الكلمات التي كانت تصلُ إلى أذني برنةٍ عالية. النكات الجنسية اللماحة، الضحك العالي فجأةً، الشتائمُ التي تمرُ عابرةً مع الكلمات، الإعلان الصريح عن العلاقة العاطفية وأشياء كثيرة كانت رنتها عالية على أذني. لقد كنتُ أتعلمُ كيفَ يكون الحب مختلفاً على مسافة 250 كيلو متراً عني فقط. أجبتُ حازم بنفسِ المرح المبطن بدلالٍ لئيم: «يا ليتهُ كان قريباً من سِنّي!»

بلعَ حازم ملاحظتي كأنهُ يبلعُ سكيناً وصمتَ ثمّ عادَ إلى موضوعِ الكتاب بتعابير وجهٍ مختلفةٍ مستفسراً عن مضمونه ومحاولاً بعثرةَ الملامح التي تركها ردي على وجهه. قالَ بشيءٍ من العصبية:

- لا أعرف يا حبيبتي لماذا تثيرينَ قضايا ليست بحاجة للمزيد! «الأمور عال! كل شي عال».. لا أفهم لماذا تكتبين روايةً كاملة عن العمال السوريين!!

- حازم، أنتَ الصحفي ولستُ أنا. إنهم بمئات الآلاف في بلدكَ الذي لا يتجاوزُ عددُ سكانهِ الخمسة ملايين. إنهم طبقة الآن، شريحة كاملة مندسة بوجعٍ بينكم. عن ماذا أكتب إذاً، عن فراشات ليل بيروت؟

وقعَ صمتٌ متوتر للحظاتٍ بيننا. لسنا مجرد امرأة ورجل عاديين، أنا

وحـازم. إننـا أكثـر مـن ذلـك. لم يجمعنـا الحب فقط وإنمـا كان هذا الحـب نتيجةً لمواصفـاتٍ خاصـة فـي كلٍّ منـا. لقـد أحـبَّ الواحـدُ منـا مواصفـات الآخـر وهكذا وُلـد الحـبّ. إننـي علـى يقيـن أننـا أنضـج من أن يكـونَ رباطنا بسـبب توقّد شـبق مـرَّ للحظـات فـي عقلينـا. لهـذا، إذا مـا تغيـرت عقائدنـا، أفكارنـا ووجهـات نظرنا، فـإنّ الحـب يهتـزّ من رأسـهِ حتى أخمـص قدميه. لكـنّ الذاكرة الماديـة تبقى حية لفتـرةٍ طويلـة؛ الاعتـراف بالحـب والهمس خلالَ القبـل، اللمس المكتشـف وحرارة الاقتـراب مـا تـزالُ هنـاكَ ماثلة فـي أرواحنا وجاهزة لكـي تُبـدِّدَ أولَ اختلاف يطفو علـى السـطح. أمسـكَ حـازم يـدي مبتسـماً علـى مضـض وقـال: «هيـا نخـرج مـن هنا».

(9)

فـي 21 تشـرين الأول عـام 1919م، وصـلَ إلى بيـروت الجنرال غـورو حاكماً علـى لبنـان وسـوريا تحتَ اسـم المفـوض السـامي لحكومـة الجمهورية الفرنسـية فـي الشـرق. كان غـورو فاقـداً لأحـدِ ذراعيـه فـي إحـدى المعـارك التـي حـاولَ فيهـا الحلفـاء اختـراقَ الدردنيـل مـن أجـلِ احتلال اسـطنبول. لقـد أتى لكـي يُعزز التقسـيم الفرنسـي لبلادِ الشـام بذراعٍ واحدة ونفسٍ متشـفية. كانَ عارفاً بما يجري فـي صمـتِ هذهِ البـلاد التي تغلي كمرجل، فالجواسـيس كانت تنخرُ جسـدَ البذرةِ الوطنيـة الفتيـة، والدعـاء للشـريف حسـين بـن علـي في جوامـعِ الوطن السـوري وكنائسـهِ جعلـت الرجـل يرتجـف مـن الغضـب فنَفَـى مَـن نَفَـى وقَتَـلَ مَـن قَتَـل، وألغـى مجلـس الإدراة فـي جبـلِ لبنـان، والتفتَ إلى سـوريا الداخلية مُنـذراً الملك فيصـل بالتنحـي وقبـول الانتـداب وإلغـاء الجيـش العربـي فيهـا. لكـن حيـن رفضَ هـذا الأخيـر، كان العسـكر الفرنسـي يزحـفُ إلى دمشـق يريـدُ أن يحتلهـا بالقوة. لقـد دخـلَ غورو بيـدهِ الوحيـدة إلى قلبِ دمشـق وبمسـاعدةِ حامياتـه المنحدرة مـن سـلالاتِ الثـورة الفرنسـية، وهناكَ توجهَ إلى قبـرِ صلاح الديـن الأيوبي بالقربِ مـن مسـجد بنـي أمية محاطـاً برجالهِ وعلامـاتِ النصر على وجههِ الأبكـم. لقد كانَ الرجـل يقـفُ علـى ذروةِ انتصـارهِ وهـو يحمـلُ عصـاهُ التي قـرعَ بها الضريـح قائلاً

بلكنةٍ لم تلوثها المستعمرات الكثيرة ولا غزوات الجمهورية العاقلة:

«Les croisades ont maintenant terminé! Saladin éveillé, nous avons renvoyé! Ma présence ici consacre la victoire de la Croix sur le croissant»[1].

بعدَ عام، كانَ غورو يقفُ مخاطباً أعيانَ البلاد في قصرِ الصنوبر في بيروت بينما كانَ المطران الياس الحويك رئيس الأساقفة المارونيّ والشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت يستمعان إلى خطبةِ الرجل المعطوب في هيئتهِ الاحتفالية التي زادها تيهاً مدفعان نُصِبا على مدخلِ القصر كانا قد سُرِقا من الجيش السوري خلال معركة ميسلون:

«باسم حكومة الجمهوريّة الفرنسيّة أُعلن (لبنان الكبير) في قوتهِ وعظمتهِ مِن النهرِ الكبير إلى أبوابِ فلسطين وقممِ لبنان الشرقي. بالأمس، منذُ خمسة أسابيع، كانَ جنود فرنسا الفتيان، أولئكَ الذين أدهشتكم أفعالهم لمدةِ أربعِ سنوات، يعزّزون أمانيكم، وبمعركةٍ واحدة، قضوا على تلك القوة المشؤومة (الجيش العربي السوري) التي كانت تطمعُ باستعبادكم. إن جنودَ فرنسا هم كفلاءُ استقلالكم، فلا تنسوا أنّ دمَ فرنسا الكريم قد سالَ لأجلِ هذا الاستقلال، كما سالَ لأجلِ استقلال شعوبٍ كثيرة. ليحيا لبنان الكبير، لتحيا فرنسا!»

في اليومِ التالي، تركوا هذا الجنرال البراغماتي جالساً في كرسي مُذهّب في كنيسةِ مارجرجس في بيروت يحضرُ قدّاساً أُقيمَ على شرفهِ. لقد وصلَ غرورهُ الأوروبي إلى مداه وهو يستمعُ إلى «وعظة» مؤثرة للمطران إغناطيوس

(1) لقد انتهت الحملاتُ الصليبية. استيقظْ يا صلاح الدين، ها نحنُ قد عدنا. إنّ حضوري ها هنا يكرّسُ انتصار الصليب على الهلال.

مبارك بدأت بعبارةٍ شهيرة من الإنجيل:

«(هذا هو اليوم الذي صنعهُ الرب فلنفرح ونتهلل به)... بعد استيلائكَ على الشام، يا مولاي. جلوْت عن الشعب غيومَ الأوهام فأصبحَ في حالةٍ من الفرح والشكر والحماس لا تُوصف، لأن هذا الانتصار أنقذهُ من كابوس التشوش والقلق الذي كانَ يضغطهُ ويُثقل عليه، فأصبحَ الآن يشتغلُ ويعملُ في راحةٍ وهناء... فاسمح لي يا حضرة القائد أن أشكركَ باسم الشعب الساذج الذي أنقذتَهُ من أغلالِ الجورِ والاستبداد وأشكركَ أيضاً لاستيلائكَ على الشام التي كانت حكومتها السابقة منشأ تلكَ الاضطرابات. أشكركَ على (لبنان الكبير) الذي فتحَ لكَ السبيل فصرتَ سيداً على سوريا كلها».

لقد زُفّت بيروت إلى جبل لبنان في ذلك اليوم وسطَ فرحة الانفصاليين فيهِ شعراً وإعلاماً، زفافاً دينياً مسيحياً لا رجعةَ منه وانتهت وعودُ الحلفاء للعرب، لكنّ المِرجلَ بقيَ يغلي فيها وفي طرابلس وصور وصيدا. لم يكن الانتداب مقبولاً لدى الكثيرين ولا تجزئة البلاد السورية بحسبِ الطائفة. كانت هذه العملية الجراحية أدهى وأكبر ألماً من أن تتحملها كل أجزاء الجسم، والإصرار على الوحدةِ السورية قد بدأ يأخذُ شكلاً معارضاً، «لكن حساباتِ الدّب لم تنطبق على حساباتِ الكرم». لقد كانت باريس طرشاء وهي تُكلّف لجنةً من وزارة خارجيتها بوضعِ دستورٍ للبنان. وهكذا ضمت الجمهورية الجديدة كلّاً من بيروت (صيدا، صور ومرجعيون) وطرابلس (قضاء عكار) وجبل لبنان والبقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا. لقد اكتملَ العمل الجراحي وغدت بيروت عاصمةً لهذا الجزء من الجسم المكلوم والمتألق في جراحهِ. لم يكن الكلّ في هذا الكيان متوافقاً مع الكلّ، لكن من أراد لهذا البتر أن يحصل وجدَ أن لا سبيلَ إليهِ إلا عبرَ الدانتيل الفرنسي الدافئ كحضنِ الأم.

وقفتُ أنا وحازم على كورنيشِ الروشة صامتين. كانَ شهرُ شباط دافئاً

سـمحَ لأعـدادٍ مـن النـاس بالتنـزه جيئـةً وذهاباً علـى رصيفـهِ المُطل علـى صخرةِ الروشـة. لقـد كنّا ومـا زلنـا عالقيـن في شـبكةِ الحيـرة. ونظـرتُ إليهِ بطـرفِ عيني شـبه المطبقـة مـن قـوةِ الشـمس فرأيتـهُ يتأمـلُ البحـر وقـد تغضـنَ جبينـهُ وكأنهُ يعيـشُ لحظـةً شـعوريةً مكثفـة مـا. اقتربـتُ منـهُ أكثـر ولمسـتُ يـدهُ الموضوعـة علـى سـورِ الكورنيـش فابتسـمَ بهـدوءٍ واسـتدارَ وقـال فـي الحال:

- لا أحبُّ أن يكونَ هناكَ توترٌ بيننا.. أشعرُ بحجرٍ جاثمٍ على صدري.

- لم يحدث شيء.

- لا أريـدُ لشـيءٍ أن يحـدث.. انسـي العمـالَ السـوريين الآن، انسـي روايتكِ وانسـي تعليقاتـي.. كل هـذا إلهـاءٌ في التفاصيـل لا أريده... انظري إلـى هذا البحر يـا مريـم لـو كانَ لـهُ فـمٌ لَنَطـق. لا أريـدُ أن نُضيّـعَ الحاضـر فـي تقليـبِ المواجع. لقـد حملـتُ الطحيـن علـى كتفي لكلِّ بيـوتِ الحيّ خـلالَ الحرب. كان السـوريون يضربـونَ مـن جهـة، وحركـةُ أمـل مـن جهـة، والقـوات مـن جهـة، والفلسـطينيون يحلمـونَ بالعبـور إلـى القـدس من هنا. كانَ كل شـيءٍ مطبقاً على رؤوسـنا؛ أحزاب وتيـارات ورجـال وأسـلحة وقناصات وجبهات صغيـرة وأخرى كبيـرة وحواجز.. كان الصالـحُ ضائعـاً بالطالـح. لا نريـدُ تقليـبَ المواجـع أرجـوكِ يـا مريـم. دعـي الأمورَ تمشـي علـى هواهـا. لا تعمـدي إلـى نكشـها وتحريكها. اتركـي البراكيـن ترقد في مواقدهـا سـاكنةً وتعالـي لنحـركَ براكينَ مـن نوعٍ آخـر. اقبلي معي.. فقـط اقبلي. ثقـي بـي. مـن يحبـكِ أكثـر منـي في هـذا العالـم؟ مـن..؟ كانت الحـربُ مهولـةً يا مريـم. كنـتُ يافعـاً ويملؤنـي الطمـوح. قبعـةُ جيفـارا، شـعرُ ولحيـة كارل ماركس، بـزّةُ كاسـترو العسـكرية وطريقـة كلامـهِ، موسـيقى زيـاد الرحبانـي.. لا تنظري إلى الصليـب علـى صـدري. لـم أضعـهُ أنـا وإنمـا هـي الحـربُ التـي حفرته حفـراً على صـدورِ الجميـع. الحـربُ الكافـرة حفـرت الصلبـان والمصاحف علـى صدرونا. هذا مـا تفعلـهُ حـروب الأهـلِ والجيـران يـا حبيبتـي، تجعـلُ الـكلَّ متمترسـاً وراءَ دينهِ.

أصبحتُ متديناً مع الوقت ولم أكن أبداً فيما مضى. لا تقلبي المواجعَ يا مريم فما خفيَ كانَ أعظم. لقد خرجَ والدي من المنزل عام 1982م ولم يعد. كانَ عيدُ الميلاد بعد يومين تماماً لكننا لم نكن في حالةٍ تسمحُ لنا بشيءٍ من الفرح. غابَ والدي عن المنزل منذُ ذلكَ التاريخ وما زالَ غائباً. لم أكن أريدُ أن أُكنّى بابن شهيد أو ابن مفقود.. كنتُ أريدُ أن أحتفظَ باسمي فقط، ولكنّ هذا كانَ مستحيلاً في هوجةِ الحرب. كان عليَّ أن أكون شيئاً ما، لقباً ما، أن أكون مُعنوناً ومُنتمياً. لم يكن هناكَ رجالٌ ونساء خارجَ السِّرب في الحرب. كنّا جميعاً مُحلّقينَ في أسرابنا المختلفة والمتشابكة فيما بينها. لم تكن هذهِ الحرب تشبهُ أحداً ولكنها جعلتنا جميعاً نشبهها.

أخذَ حازم يدي بينَ يديهِ وقالَ: «هيا بنا من هنا». انطلقنا إلى الجبلِ مرةً أخرى، إلى منطقةِ غزير الجميلة. كنتُ كلما ارتفعتُ أكثرَ عن سطح البحر وباتجاهِ الجبالِ المشجرة، كلما شعرتُ بالخفة والراحة أكثر. أما حازم فقد عادَ إلى مزاجهِ الحيوي مرةً أخرى وبدأ من جديد يترنّمُ بأغانيه الفرنسية القديمة وهو يبتسمُ لي ويغمزُ بطرفِ عينه كلّ حين. ووقفَ الزمنُ مرةً أخرى في هذه البقعة من العالم، وقف في قلبي وفي قلبِ حازم ولاحت لي الدنيا طيّعةً، وأنّ تحميلها إلى ما فوق طاقتها ضربٌ من الجنون. تُرى، ماذا سأفعل بالماضي وقراءة التاريخ وهذه الجغرافية اللئيمة التي تفرضُ نفسها فرضاً؟

بَلبلَ رنينُ هاتفِ حازم صفاء اللحظة فتوقفَ عن الدندنة وتوقفتْ معهُ أفكاري وسكنَ الحب. كان زميلُ حازم على الطرفِ الثاني من الخط. فهمتُ من كلماتهِ المتقطعة والمقتضبة وترديده العصبي لكلمة «حاضر... حاضر.. مسافة الطريق»، أنّ عليهِ أن يعودَ أدراجه إلى الجريدة. أغلقَ حازم الخط ثم مالَ على جانب الطريق وأوقفَ السيارة وأخذَ يضربُ على مقودِ السيارة بعصبية .

- ماذا حدث؟ أخبرني ماذا حدث؟

- هناك انفجارٌ هائل قربَ السان جورج. قتلوا رفيق الحريري.

(10)

أعطت معاهدة 1936م، للبنان استقلاله، لكن الفرنسيين كانوا باقينَ فيه. لقد استعملَ (إميل إدّه) رئيس الجمهورية آنذاك أفخرَ أنواع الحبرِ للتوقيعِ عليها، بينما استلّ الكونت (دو مارتيل)، المفوّض السامي الفرنسي، قلمهُ من جيبهِ الخاص. كانت القومية العربية في بدايةِ كساحها على حين بدت الطائفية مارداً صغيراً ينمو بدلالٍ في حضنِ الدولةِ الوليدة. سوفَ تُعلِمُ إسرائيل في حروبها اللاحقة بعضَ مسيحيي لبنان أنّ العدو هو (سوريا) ولا شيء آخرَ سواها؛ درسٌ بُذّلت أغلفتهُ كثيراً فيما بعد ولكنّهُ بقي هو نفسهُ عبرَ كلّ السنواتِ اللاحقة. إنهُ هو الذي خلقَ، بالمقابل، عقليةَ الفتحِ الإسلامي، وهكذا فُتحت أبوابُ البلد لكلّ أجنبي من أجلِ حمايةِ الطائفة، وبدأ البحثُ مُذْ ذَاك الوقت عن استقلالٍ وطنيّ للبنان لا عن فرنسا وإنما عن سوريا.

لم تُنزِل طرابلس العلم السوري عن المدينة وتوقّفت الحياة لبرهةٍ بينما كانت الأوهام، الأوهام الكثيرة تتراكم ككرةِ الثلج وكذلكَ الآمال والأحداث معها. بعدَ ثلاثِ سنوات على معاهدة الاستقلال، اندلعت الحرب في أوروبا واحترقت بنيرانها القارّة كلها تقريباً، وبحجّتها أُلغي الدستور اللبناني و»عادت حليمة الفرنسية إلى عادتها القديمة».

اجتاحت قواتُ الحلفاء البريطانية والفرنسية الديغولية سوريا أثناءَ الحربِ العالمية الثانية. بعدَ احتلالهم لباريس، وضعت بريطانيا مع حكومةِ ديغول المقاومة خطةً مشتركة للزحف على الدولتين في منتصف يونيو / حزيران عام 1941م. أما بيروت فكانت جزءاً من العمليات الحربية التي وصلت إلى الدامور خوفاً من تقدمِ الإنكليز الذين فعلوا ذلك على هواهم بينما ترك الجنرال الفرنسي دانتر بيروت حاملاً معهُ جميعَ احتياطي البلدين من الذهب الذي كان موجوداً في مصرف سوريا ولبنان، مستبيحاً بذلك اتفاقية الهدنة جملةً وتفصيلاً. لقد أُعلن استقلالُ لبنان ثلاثَ مراتٍ قبلَ أن يستلمَ الجنرال كاترو منصبَ المفوض السامي الفرنسي الجديد باسم فرنسا الحرة. هذا ما دلّتني عليهِ بسهولة قراءتي لتاريخنا الحديث المُدوّن بالعربية. لكنّ العثورَ على الرسائلِ الديوانية الفرنسية الخاصة بتلكَ الفترة التي قضّت مضجعي جعلني أتبلبل قلقاً من إعلان كاترو لاستقلال لبنان وسوريا. لقد كتبَ هذا الأخير بفرنسية مفخمة رسالةً إلى وزيرِ الدولة البريطاني في القاهرة آنذاك وذلكَ قبل أسبوع من إعلانهِ لاستقلال البلدين أن «فرنسا قد جعلت من لبنان قاعدةً لسياستها في المشرق، آخذةً بعينِ الاعتبار ما تحتاجهُ السياسة في هذا البلد. إنّ لبنان الموحد ضروري لمصالحها ولن يضرّ بمصالح بريطانيا العظمى، لهذا من اللازم للقوى الغربية أن تتضامن معاً دائماً، شاءت أم أبت، في وجهِ المسلمين، وأن يكونَ هناكَ دولة تدين لها بالولاء وتمثلُ ثقلاً معادلاً للدول العربية المستقلة مسلمة الديانة. إن هذا الثِّقل المُعادل هو ضروري في الحرب بسبب الموقع الجغرافي والبحري للبنان وضروري في السِّلم لأن لبنان بواجهتهِ المتوسطية المتوجهة نحو أوروبا هو رأسُ الجسر الذي يمثل المنفذَ إلى الداخل المسلم».

لقد أُسقط من يدي. لم يعد هناكَ مجال أمامي لكي أتطلعَ لما يحدثُ

حولي بنيةٍ طيبة. لقد أهلكتني الريبة وجعلت هذا الاستقرار الذي أضعُ قدمي عليهِ الآن براحةٍ ودَعَةٍ، منهوباً مرةً ثانية بتوقع زلازل كثيرة قادمة. ليست بيوتنا من طين كما كانت عليه عندما هُدّت المدن فوق رؤوسنا وانقلبت غائصةً في عُمق الأرض بسببِ هزات الماضي، وإنما هي أكثرُ صلابةً اليوم، فموادها عالية الجودة، مستوردة وممهورة بإمضاءات العباقرة الغربيين.

لقد حلّقَ طيرانُ القوات الحليفة على علوٍّ منخفض فوق المدن السورية في صباحِ الثامن من حزيران عام 1941م، وألقى بمنشوراتٍ ورقية ملونة فوقَ أسطح المنازل الهاجعة تحتَ الشمس، يعترفُ بها كاترو باسم ديغول بأنّهُ دخلَ مع قواتهِ أراضي هذين البلدين لإيصالهما إلى استقلالهما بمجردِ نهاية الحرب. لقد أمكنَ لهذا الجنرال النحيل، العسكري ابن العسكري، أن يبرّرَ تواجدَ قوات فرنسا الحرة والقوات الإنكليزية كنتيجةِ الخوف من رجالِ هتلر النازيين، كما عرضَ صفقتهُ الأخيرة بحكنةٍ فرنسية تليقُ بمنسقِ أزهار أو طبّاخ قائلاً أن قبولَ التعاون معهُ يحملُ من المزايا الكثير، أوّلها رفعُ الحصار عن البلدين، والتمتع بكل العلاقات المتاحة مع البلاد الحُرة الأخرى التي تتعاطى بالجنيه الإسترليني، وهكذا تُفتح بوابةُ التجارة على مصراعيها أمامكم. لقد رمى كاترو بذكاءٍ كبيرٍ بمبلغ الرشوة الكبير على الطاولة السورية واللبنانية.

بعدَ عام، توقفت سيارة شيفروليه سوداء رسمية أمامَ باب السراي الحكومي في بيروت وترجّلَ منها أمريكي اسمهُ (ودزورس) كانَ قد تمّ تعيينهُ كمندوبٍ برتبةِ وزيرٍ مفاوض لبلدهِ. كانَ الرجلُ يحملُ في حقيبتهِ أوراقَ اعتمادهِ التي قدمها إلى (الفريد نقاش) رئيس الجمهوريةِ آنذاك بعدَ أن ألقى كلمة بلادهِ أمامهُ وأيّدَ فيها استقلالَ لبنان كبلدٍ «سيد وحرّ». لقد كانَ الاستقلال يكتملُ شيئاً فشيئاً بمباركاتٍ تراكمت فوقَ جسدِ بيروت الجميلة وكأنها بغيٌّ في معبدٍ كُرّسَ لإلهاء الحُجّاج والمارقين. بيروتُ الجميلة المُقطّعة الأوصال،

الاحتفالية الهيئة والمستعدة لدوراتِ حبٍّ جديدة محبةً لله ولا شيء غيره.

في تشرين الثاني عام 1943م، تسلمَ المندوب السامي (هيللو) من الحكومتين اللبنانية والسورية رغبتهما في أن تتحولَ المندوبية الفرنسية إلى تمثيلٍ دبلوماسي. كانَ بشارة الخوري على رأسِ الدولة ورياض الصلح رئيساً للوزراء حينَ أيقظهما العسكرُ الفرنسي في الثالثة بعدَ منتصفِ الليل وألقوا القبض عليهما ورموهما في قلعةِ راشيا. التمثيل الدبلوماسي كانَ لا يليقُ بطموحاتِ الجنيه الإسترليني لكنه كلّ ما تبقى أمامَ فرنسا الحرة وهي ترى جنونَ الاضطرابات في عرضِ البلاد وطولها. مع ذلك، لم أعرف إلى هذهِ اللحظة مما استقلَ كلا البلدين! أمِنْ فرنسا؟ أمِنَ العروبة؟ أم مِن بعضهما البعض؟

توقفت سيارةُ حازم أمامَ بابِ بيتي في جونيه. كانت الساعة قد قاربت على الثالثة بعدَ الظهر. أمسكَ يدي ونظر إليّ وقالَ بحزمٍ وخوف: «من الآن وصاعداً لا تخرجي من البيت قبلَ أن آتي وآخذك بنفسي. انتظري اتصالي هذا المساء.»

لم يقبّلني. لقد بدا قلقاً وعصبياً وواجماً. أما أنا فتركتهُ يرحلُ ناهباً بسيارته الإسفلت المُحسّن الذي رُصفَ بهِ شارعُ البيت.

(11)

14 شباط 2005.

توجّـهَ رفيـق الحريـري رئيـس وزراء لبنـان المسـتقيل حديثـاً سـيراً علـى الأقـدام مـعَ «شـلّةٍ» مـن أصدقائـهِ إلـى مقهى فـي مقابل مجلـس النـواب اللبناني فـي سـاحةِ ريـاض الصلـح. كانَ الطقـسُ يُنـذر بربيـعٍ آتٍ قبـلَ أوانـهِ، والوسـطُ التجـاري المعـادُ بنـاؤهُ لبيـروت يعيـشُ أكثـرَ أيامـهِ تدفقـاً وتفتحـاً، والحيـاة تبدو أكثـر وعـداً علـى الرغـم مـن الذبذبـات الكثيـرة اليوميـة التـي تُميّـز الحيـاة فـي لبنـان. أمـا السـوريون فقـد كبحـوا مـن اتصالاتهـم مـع حكومـة أمريـكا بعـدَ أن لمسـوا نيتهـا فـي رؤيتهـم يغـادرونَ البلـدَ بلا رجعـة، ومراقبـة الانتخابـات النيابية عـن كثـب خوفـاً مـن أي «تدخـلٍ أجنبـي». لقـد كان جليـاً أن الأمـرَ قد حُسـم منذُ فتـرةٍ فـي هـذا الاتجـاه، وأن جرحـاً لـم يندمـل أُعيـدَ فتحـهُ مـرةً أخرى بمهـارةٍ لن يتمكـنَ أحـد لاحقـاً مـن مجاراتهـا.

كانـت البلـد قـد ورثـت تفتتـاً مؤلمـاً مـن جـراء الحـربِ الأهليـة المنهكـة، حـرب الأخـوة والأهـل والأصدقـاء، وكانـت كل طائفـةٍ متمترسـةٍ وراءَ زعيمهـا الروحـي، تقاتـلُ بسـيفهِ وتقـدمُ مـن أجلـهِ ولأجلـهِ الولـدَ والبلـد. ولـدت أحـزابُ الجيـل الثالـث وبـرزت أثناءَ الحـرب وكانت نتاجاً لهـا. لقد عرفَت كيـفَ تنتقلُ من

لـم تعـرف الاسـتقرار يومـاً. إنهـا لا تشـبهُ أحـزابَ العشـرينات حينما كانـت الدولة الوليـدة مجـردَ حلـم يَسـعى إليـه البعض، ولا تشـبهُ أحـزابَ الدولة المسـتقلة للتوّ والخارجـة مـن عبـاءةِ الدانتيـل الفرنسـية والمنفصلـة جراحيـاً عن سـوريا، ولا هي مثـلَ الأحـزاب المنظمـة التـي كانـت تضـجُّ قبـلَ الحـربِ الأخيـرة والتـي رافقـت الحـزنَ الـذي خلفتهُ هزيمةُ حربِ الـ 1967م وظهور قيادةٍ جديدةٍ للفلسـطينيين، ولا حتـى هـذه الطفـرة النفطيـة التـي اكتسـحت العـرب بعدَ حـربِ عـام 1973م. لقـد حلّـت أحـزابُ الحـرب اليـوم ميليشـياتها ومقاتليهـا ونزعـت لبـاسَ القناصـة واسـتبدلت بهـا ربطـاتِ العنـق الأكثر دبلوماسـية وتنميقـاً. وبينما اختفـى بعضها، مُنـع البعـضُ الآخـر مـن الممارسـة. أمـا حـزبُ اللـه فقـد بقـي وحـدهُ يجمـعُ بينَ العمليـن السياسـي والعسـكري، ويطـوي تحـتَ جناحـهِ أكبـرَ قسـمٍ مـن شـيعة لبنـان. لـم تُلقـي هـذهِ الأحـزاب بـالاً خـلالَ حـربِ الأهـل لأشـياءَ أكثرَ حيويـة مثل الديمقراطيـة، فالبقـاء علـى قيـدِ الحيـاة فـي أدغـالِ القتـال كانَ شـغلها الشـاغل، كمـا لـم يكـن وارداً أخـذُ بعـضِ الوقـت من أجلِ شـيءٍ مـن الإصغاء أو الحـوار في زحمـةِ البقـاء علـى قيـدِ الحيـاة. لقـد عُولـج الديـنُ حينهـا بـكل بشـاعةٍ، فأُلصقت صـورُ مريـم العـذراء بعجالـةٍ علـى كلاشـنكوفات بعـضِ الأحـزاب المسـيحية، كمـا كانَ مقاتلـو الأحـزاب الأخـرى يلهجـونَ باسـم اللـه مـع كل قذيفـة هـاون.

كانَ الحريـري محاطـاً بمجموعـةٍ مـن أصدقائـهِ المقربيـن فـي المقهـى حيـنَ بـدأ الدفـاعَ عـن نفسـهِ قائـلاً «.. إنهـم يشـككونَ بوطنيتـي وعروبتـي. لكـن ردي بسـيط: لا أحـدَ يمكنـهُ المزايـدة علـيّ. لابـدَّ أنكـم لاحظتـم أنـهُ بالرغـم مـن الانقسـامات التـي هـدّت البـلاد مؤخـراً إلا أننـي تمسـكتُ باتفـاقِ الطائـف». هـزَّ الأصدقـاء رؤوسـهم علامـةَ الموافقـة بينمـا تمتـمَ البعضُ الآخـر مؤيداً. بعـدَ نصفِ سـاعة غادرهـم، يقودُ سـيارتهُ بنفسـهِ باتجـاهِ قصرهِ قـربَ فندقِ السـان جورج. لم

يصل الرجل أبداً إلى منزلهِ فلقد صعقَ انفجارٌ مهول جسدَهُ في الحال، وهكذا انطفأ ضوءٌ فوقَ مسرحٍ كبيرٍ صاخب بينَ ذهولِ الحاضرين والممثلين أنفسهم.

لقد أربكتني قراءةُ التاريخ لدرجةِ التبس عليَّ الزمان، فاختلطت الحقب وتطابقت وتباينت ثم اتسقت كلّها فجأةً معاً، وكأنّ ما يحدثُ هو ما كان دائماً وما سيبقى قائماً. لقد بدَأَت عسكرةُ الأحزابِ اللبنانية في السبعينات، أما غرضها فكان الانتصار على محاورِ القتال التي كانت تنتشرُ في بيروت بينما كانَ الحوار بينها يُدار من وراءِ المتاريس. في تلكَ الأثناء، كان والدي يُعدُّ العدّة لكي نعودَ إلى بيروت. قالَ لي إنهُ يريدُ أن يعودَ لأن هناكَ تقطنُ بقيةُ العائلة والأفضلُ أن يلتمَّ شملُ الجميع. حينَ سافرَ مرةً إلى (ضهور شوير) فاجأَهُ أن أسماءَ أشقائهِ وشقيقاتهِ وأبناءِ عمومتهِ كانت مكررة في بقية فروع العائلة فيها. لم يكن هناكَ بُرهانٌ أقوى من هذا بالنسبةِ إليهُ. حين اندلعت الحربُ لاحقاً، دُفن هذا الحلم في مهدهِ وانتهى إلى غيرِ رجعة. ماتَ والدي بعدَ ستة عشر عاماً بطريقةٍ دراماتيكيةٍ في مدينة سان دييغو الأمريكية بعد أسبوعٍ من وصولهِ إليها، قضاهُ شبه غائب عن الوعي بسبب المرض. لم يذكر هذا الحلم خلالَ هذيانه. جُلّ ما قالهُ هو إنه يريدُ أن يُدفن حيثُ نكونُ أنا وأخوتي، وهذا ما حصل. لقد كانَ للحُبّ حساباتٌ أخرى بالنسبةِ إلى رجلٍ مريضٍ تماماً، كما كانَ الحال وما زالَ ربما بالنسبة إلى هذهِ الأحزاب التي ضرّجت وجهَ بيروت الجميلة بالوطنيةِ القاتلة، أحزاب لم تعرف كيفَ تقودُ معاركها الخاصة، وإنّما بقيت مثلَ آلياتِ حربٍ مهترئةٍ تُدار من مكانٍ ما بعيد.

لقد أردتُ أن أفهمَ بكل ما لدي من قوةٍ شيئاً عن تاريخِ مدينةِ حازم. كنتُ أرى تفاصيلَ هذا التاريخ في كل لفتةٍ من لفتاتهِ وكل حركةٍ وإيماءةٍ أو كلمة. حتى كلمات الحب التي كان يهمسُ لي بها، كان لها طعمُ أرضٍ محترقةٍ مرَّ عليها مرتزقةٌ مُدجّجين بلباسٍ غير نظامي وطموحاتٍ دينيةٍ خرقاء. «الحب

يجتاحنا ويخلّفنا حطاماً من دونِ أسلحة»، العبارة التي يحلو لحازم أن يرددها دائماً أمامي وهو يمسكُ يديَّ منتشياً ونحنُ جالسان في زاويتنا المعتادة في (مقهى الكاستيل) في شارعِ (الكلسليك) الذي يعجُّ بالجواسيس والسياسيين. تاريخُ بيروت يشبههُ، بل إنهما صورتان طبق الأصل. تُرى، من أينَ أتى حازم بكلماتِ الحب الصريحة وبهذا الميل الفاقع للديمقراطية وتلكَ الرخاوة في فهمِ «دوافع العدو»؟ لم تكن أحزابُ البلد نقيّةً خالصة وربما لا يجبُ عليَّ أن أفهمها هكذا ولا الصراع فيما بينها على أنهُ صراعٌ بسيطٌ من أجلِ خيرِ هذا الوطن. كان هناكَ حبلٌ سرّيّ يربطُ بينها وبينَ حروبنا مع الصهاينة ووجود الفلسطينين المسلح في بيروت. لقد كان زواجاً مُزدحماً هذا الذي عقد على جسد المدينة المكلومة، المدينة المتعددة الأزواج. لبناني وفلسطيني وسوري؛ رجال كُثُر هدّتهم الغواية فتعاركوا فيما بينهم وتناطحوا وعقدوا الأحلاف والاتفاقيات واقتسموا وقسموا، وشربوا الأنخاب وبكوا وتصافحوا وفرحوا وعادوا مرةً أخرى كل منهم، بعدما انتهت الحرب، وراءَ مِتراس ربطةِ عنقهِ الأكثر أناقة وابتذالاً في آن يقدمونَ الهدايا حيناً والتهديدات حيناً آخر، وهكذا الحياة تسير. لقد قالَ لي حازم إنهُ لو كانَ لبحرِ بيروت فمٌ لنطقَ ولحكى ما لم يُحكى. لقد انفلقت حتى صفوف الحزب الواحد وتصارعت فيما بينها، فخرجت القوات اللبنانية عن القيادة المدنية لحزبِ الكتائب، وكذلكَ داخل أحزاب أخرى كالحزب السوري القومي وحركة أمل، وإن كانَ بطرقٍ أخرى بعد أن ذهبَ زعيمها (موسى الصدر) إلى ليبيا ولم يعد.

حينَ كنتُ أقولُ لحازم أن القوات اللبنانية كانت تحتَ تأثير إسرائيل كانَ يردّ بأن الأحزابَ القومية واليسارية كانت تحتَ تأثيرِ السوريين والفلسطينيين. وحينَ كنتُ أقولُ لهُ أن الأحزاب المسيحية تقاتلت فيما بينها في المنطقةِ الشرقية لبيروت، كان يردّ بأنّ أحزاب الحركة الوطنية أيضاً تقاتلت فيما بينها

في بيروت الغربية، كما اندلعت «حربُ المخيمات» بين حركةِ أمل المدعومة من سوريا وبينَ الفلسطينيين الموالين لعرفات، وجرت تصفية منظمة (المرابطون) عام 1985م، المدعومة من فتح، على يدِ حركة أمل والحزب التقدمي الاشتراكي. حتى في الجنوب، قالها بحماسٍ وانفعال، لَعلعَ الرصاصُ بين أمل وحزب الله في أواخر الثمانينات بينما روّعت النزاعات المسلحة شوارعَ طرابلس بين حركةِ التوحيد الإسلامية والحزب الشيوعي، والفصائل الفلسطينية المسلحة. ردودهُ التي تشبهُ طلقات رشاش تجعلني أصمت.

كانَ وجهُ حازم يتغير كلما مرَّ ذِكرُ الحرب في حديثنا الذي لا يتوقف. كنتُ أشعر أني لا أعرفه، رجل آخر، قناص، ميلشياوي وليسَ حبيباً أو بطريركاً بلكنةٍ فرنسية خالصة من القرن السابع عشر. حين تركني الليلة أمامَ بابِ البيت مع كلماتٍ قليلةٍ مقتضبةٍ كانَ المطرُ قد بدأ بالهطول خفيفاً ونسمات باردة قد أخذت تحركُ أحواض الزرع أمام باب المبنى. لقد كانَ قلبي هاجعاً على مرارةٍ جديدةٍ لم أكن أعرفها من قبل.

حينَ رآني عبدُ الرحمن البوّاب السوري هرعَ باتجاهي وهو يحملُ مظلةً سوداءَ كبيرة.

- «ياست مريم كنتي خبريني قبل ما توصلي.. أنتِ من عضام الرقبة».

- شكراً يا عبد الرحمن...

- هل سمعتِ بالخبر؟

- نعم.. سمعت.

رافقني عبدُ الرحمن مع المظلة حتى مدخل المبنى الداخلي وهو صامت. كانَ الرجل في الخامسة والخمسين من العمر، شبه محنيّ من الخطوات العجولة المنكسرة أمامَ سكان المبنى الفخم وحمل أكياس التواصي والعيش في غرفةٍ تشبهُ الزنازين الصغيرة لثلاثين عاماً أُطلقَ عليها من دونِ

تـردد «بيـت الكونسـيرج». وفـوقَ هـذا وذاك، لم يكـن للرجل أي ضمـانٍ صحي أو أي ضمـانٍ آخـر، فليـسَ هنـاك سـوى معاشـهُ الشـهري والبقاشـيش التـي يمـنُّ بها عليـه بعـضُ السّـكان مـن وقـتٍ لآخـر. لـم يخلـع عبـد الرحمـن «الفيلـد الخاكي» القديـم طـوالَ فتـرةِ عملـهِ كبـوّابٍ للبنـاء ولا «البـوط العسـكري» الـذي صُمّـم لقتـال الجبـال والشـوارع.. قـالَ لـي» لقـد أحببـتُ هـذا البلـد مـن كل قلبـي، ثـم أن اللبنانييـن يأنفـونَ مـن الأعمـالِ الوضيعـة فـي الزراعـةِ والبنـاء والتنظيفات، أما نحـنُ فشـعبٌ يريـدُ أن يعيـش ولا يضيرنـا أن نكـدح. فـي النهايـة، لا يوجد سـفارة ولا حـدود (متـل الخلـق) ولا نحتـاج إلـى تأشـيرة (وخلينـا هيـك أحسـن)».

أتـى عبـد الرحمـن إلى بيـروت جندياً صغيراً مـع قوات الـردع العربية قادماً إليهـا مـن مدينـةِ الرقـة الواقعـة علـى ضفـافِ الفُـرات فـي شـمالِ سـوريا، وبقـي فيهـا بعـدَ أن رحلـوا. بعـدَ أن أنهـى خدمتـهُ، وجدَ عملاً بسـرعةٍ كعامـلٍ في محطةِ بنزيـن مـن دونِ أن يحصـلَ علـى تصريـحٍ بالعمـل، ثـم مـا لبـثَ أن وجـدَ عمـلاً كبـوّابٍ فـي المبنـى الـذي أقطـنُ فيـه وبقـي فيـهِ مُـذْ ذاك الوقـت. هنـاكَ نُـدبٌ كثيـرةٌ علـى وجهـهِ وآثارُ وشـمٍ على سـاعدهِ لربما كانـت تقليداً بدويّاً فـي مدينتهِ، لكـنّ آثـارَ الغُبـنِ والتعـب لا يُمكـن لأحـد أن يُخطِئَهـا. لـم يكـن عبـد الرحمـن متزوجـاً، ولـم يتمكـن مـن تجميع ما يكفـي لكي يعودَ إلـى مدينتـهِ ويجلب «ابنة الحـلال معـي». كان معاشـهُ «بالـكاد يكفـي حـق خبـز، وبيـروت غاليـة يـا سـت مريـم وأنـتِ أدرى». مـع ذلـك، كانَ حالـهُ أفضل من غيـرهِ كما قالَ لي. لقد سـقطَ ابـنُ عمـهِ مـن علـى «سـقالة» بنـاءٍ ومات مـن دونِ أي تعويـض. كان يتسـلقها كل يـومٍ «المسـكين مـن دون مـا يحـط خـوذة معـدن علـى راسـو، وقـع ومات فـوراً، وبعديـن دبّرنـا نبعتـو لأهلو مع شـوفير سـوري». لقد كانَ عبد الرحمـن يخافُ من الطـردِ فـي أيـةِ لحظـة، وعنـدَ أيـةِ غلطـة أو بسـببِ مـزاجٍ غيـر رائـق لأحدِ سـكّان المبنـى. إنـهُ لا يملـك عقـداً للعمـل، «ولا حتـى شـقفة ورقـة بتقول إني اشـتغلت

يـوم بهالبلـد». لقد كانَ الرجل مكتفياً بنفسـهِ ومنطوياً على أسـرارهِ ولقمةِ عيشـهِ. لـم يصـادق لبنانيـاً طـوالَ فترةِ عملـهِ «وليش بدي صادقهـم إذا كانـوا بيكرهونا!؟» لقـد كانَ مكتفيـاً بجهـاز تلفزيـون صغير بالأسـود والأبيـض، «بيخـشّ وصورتو مش واضحـة بـس بقـدر اسـمع الصوت».

(12)

لقد كانَ عبد الرحمن بطلاً لروايتي التي اعتقد خطيبي حازم أنني بالغتُ في اختيارِ موضوعها. كلّ شيءٍ على ما يُرام بالنسبةِ إليهُ، أو ربما هو لا يريدُ تقليبَ المواجع كما قالَ لي! أحياناً يخففُ التطلع المباشر في المصائب من حجمها في عقولنا، بينما يُضخمها أضعافاً مضاعفة الهروب المتواصل منها. قد لا تكون نكبةُ العمال السوريين ما يرفضُ حازم مواجهتها، وإنما عنصريةُ التعاطي مع من هم أدنى من اللبناني في المقام والغنى. أعرفُ قلبكَ يا حازم، أعرفهُ كباطن كفي. أنتَ أيضاً تتألمُ مثلي ولكن في سربكَ الخاص، وحينَ تكونُ سعيداً ومنتعشاً تريدُ أن تنتشلني من «هالجورة اللّي حبست حالك فيها»، كما تقول، وتزرعني في أحد قبورِ منطقة غزير الجميلة. قبركِ ها هنا؛ عبارتكَ الأشهر لكي تدلّ على حُبكَ لي ورباطنا الأبدي.

لكنكَ الليلة غائبٌ، غارقٌ في زحمةِ الاتصالات التلفونية في مكتبكَ في دار النهار، فالحدثُ لم يكن متوقعاً، وهناك الكثيرونُ ممّن يحترفونُ حياكةَ الكروشيه حولَ الأقمشة الملونة، وسوفَ يُحاك الكثيرُ من الكروشيه الغريب والمعقد حولَ مصيبةِ موتِ الرجل، وستظهرُ فجأةً أبرعُ الأيدي الماهرة من غامضِ عِلمه، وسيكونُ هناكَ الكثيرُ من الخيوطِ والقطب والرسوم التي لا تخطرُ

على بال. ستتحولُ البلدُ إلى ورشةٍ لحياكةِ الكروشيه الذي سوفَ يشبهُ الغربال الكثير الثقوب، الكروشيه المرجرج والرقيق والذي يُوحي بالقِدم والأصالة. إنهُ كروشيه بداية القرن الماضي نفسه، كروشيه الرغبة في عملٍ جراحي يفلقُ هذهِ البلاد ويشربُ نخبَ استقلالها. إنه ليس كقميصي الذي تغزلتَ بهِ مرةً وحاولتَ أن تضعَ أصبعك في أحدِ ثقوبهِ وقلتَ فيهِ شعراً ارتجالياً في نفسِ المساء بينما طعمُ الكونياك يفوحُ منك. شَتّان بين الاثنين يا حازم، لأن قميصي كانَ بلونِ الحبِ أحمر قانياً، فضفاضاً وبسيطاً من دونِ زخارف كثيرةٍ، بينما كروشيه التّيه هذا خاكي معسكر وتطريزاته متشابكة مثل «حصيرة الغجري». لا تتلفت إليه أبداً. إنهُ لا يليقُ بأشعاركَ ولاغزلكَ، ولاتصرف وقتاً في تقليب خيوطهِ أو التأمل في رسومهِ وإن فعلَ كل زملائكَ في العمل. ابقَ بعيداً عنهُ محبةً لله، وهاكَ قميصي إنه لك، ضع إصبعكَ في كل ثقوبهِ وعاينهُ عن قرب كما فعلَ توما بثقوبِ جسد المسيح، ولا تكن شكاكاً أو تجعل بصيرتك تخونك لحظةً من أجلِ الباطل. لا تحلق يا حازم كثيراً في سربِ الحائكين والمطرزين وبائعي الأقمشة الملونة، وابقَ قريباً من قميص الحب البسيط. أليست القديسة جان دارك هي مَن أوحت لكَ به؟

ربما سمعَ حازم هواجسي وأنا أفكرُ من وراءِ زجاج غرفتي بينما المطر بدأ بالهطول الخفيف، وربما لم يسمع، لكني كنتُ قادرةً على تخيلِ خليةِ النحل في مكتبهِ، وهذا الجنون الفالت من عقالهِ الذي بلبلَ المدينةَ الحذرة.

حضرَ حازم إليَّ قبلَ منتصف الليل. كنتُ قد تجنبتُ الاتصال بهِ لعلمي بصعوبةِ ذلك. لكنهُ أتى وأنا أُهيّئ نفسي للنوم. كان منهكاً والقلقُ يثبُ من عينيهِ المتعبتين. قالَ إنهُ ليس جائعاً ولكن يريد أن يتحدثَ معي قليلاً. خفتُ من نبرةِ صوتهِ الجدية وتوتره الذي حاولَ إخفاءهُ. جلسنا في المطبخ لكي أُعدّ فنجانَ قهوةٍ بينما أخذ يتحدثُ بشكلٍ متقطع ومرتبك على حين كانت

عينـهُ علـى جـدارِ الدير المق...

- اليومُ عيد الحب.

قلتُ من دون أن ألتفتَ إليه بينما أقلبُ القهوة التي تفور.

- نعم..

- مـوت الرجـل مصيبـةٌ يـا مريم. أنا لم أكـن موافقاً على الكثيـر من مواقفهِ، لكـن موتهُ قلـبَ الموازين كلها.

- ....

- إنهم يتهمون سوريا.

التفتُّ إليهِ بسرعة وتطلعتُ في عينيهِ من دون أن أردَّ بكلمة.

دفعَ حازم باتجاهي على الفور بعلبةٍ من المخمل صغيرة:

- happy valentine حبيبتـي. لا تنظـري إلـيَّ تلـكَ النظـرة.. لا أريدُ لسـحنةِ الحـب هـذه أن تـزولَ من صفحتـكِ الملائكيـة. أرجوك..

أخبرنـي حـازم أنـهُ كانَ أطـولَ يـومٍ فـي تاريـخِ المدينـة. لـم يكـن مـرَّ علـى مـوتِ الرجـل سـاعات حتـى أخـذَ السـوريون المقيمـون فـي البلـد خصوصـاً فـي منطقـة (الكـولا) يرحلـون عنهـا. فلقـد اقتحـم هـذه المنطقـة نسـوةٌ غاضبـات مـع شـبّان أخـذوا يطيحـون بالمحـلات التـي يملكهـا تجـارٌ سـوريون. لقـد أحرقـوا أيضـاً المقـرَّ الرئيسـي لحـزبِ البعـث التابع لسـوريا، والـذي كان فيما مضـى مركزاً لمخابراتهـا، وكذلـكَ أشـعلوا وهـم في قمةِ الغضـب الأهوج دواليبَ السـيارات في شـوارعِ المدينـة، رافعيـنَ أعـلام (تيـار المسـتقبل) الـذي يتزعمـهُ المغـدور وصوراً لـهُ. كانـت سـحابةُ الحـب الصباحية قـد أمطـرت كلها دفعـةً واحدة ولم يبـقَ فيها سـوى بقايـا مـن الكحـل الأسـود فـي قعرهـا. لقد زحـفَ الغاضبـون مـن كلِّ مكان باتجـاهِ محيـط مشـفى الجامعـة الأمريكيـة حيـثُ الجثمـان المتفحم، بينمـا عَلَت الشـتائمُ اللبنانيـة المشـهورة فـي الردهـات الخارجيـة للمبنـى تشـتم سـوريا مـن

رأسـها حتـى أخمـص قدميها.

كانَ حـازم فـي غايـةِ الحـذر فـي انتقـاءِ كلماتـهِ وهـو يخبرنـي بمـا حصـل مراقبـاً انفعـالات وجهـي وأنـا أصغـي لـهُ بذهـولٍ وتفكّـر. لم يكـن لديَّ مـا أقوله. لقـد بـدت الدنيـا لي كشـبكةِ صيدٍ كبـرى علقَ فيها تاريخُ الشـامِ كله بحلـوهِ ومرّهِ، بمعاهداتـه وأحلافـهِ وتقسـيماتهِ ورجالـهِ ونسـائهِ وطوائفـهِ الثمانية عشـر.

لـم تعـد هـذهِ بيروت التـي أتحضّرُ لكـي أتزوجَ فيهـا قريباً، أو أحضّـرَ لحفلِ توقيـعِ كتابـي الجديـد. لقـد تغيـرَ كل شـيءٍ خـلالَ سـاعات وكـأنّ الدنيـا «قُلبـت علـى قفاهـا». امتـلأت المدينـة بـكلِ وسـائلِ الإعـلام التـي تخطـرُ ولا تخطـرُ علـى بـال. كيـفَ اكتشـفَ المعارضـون وأهـلُ الفقيـد بعـدَ سـاعاتٍ علـى مقتلـهِ هويـة المرتكبيـن، اللـهُ وحـدهُ يعلـم!! قـالَ لـي حـازم إنّ قصرَ الراحـل كانَ يضـجُّ بالأهلِ والأصدقـاء وأفـواجٌ مـن النـاس دفعهم الانفعال إلـى الحضور والعـزاء. وبالرغم من سـكونِ شـوارع المدينة التي لم يكن يجتازها إلا السـيارات العسـكرية أو المواكب السياسـية والمظاهـرات الانفعاليـة، تـركَ الأمـنُ الحشـود تصـلُ إلى (قصـر قريطم / الحريـري) وكذلـك فعـلَ مع الصحفييـن والشـخصيات الأخرى. لقد امتـلأ الطابقُ الخامـس فـي مبنـى الاسـتقبال فـي القصـر بهـم وبالنـواب الـذي كانـوا يتوافـدون بوجوههـم الشـاحبة. أمـا خـارجَ القصـر، فكانت وفودٌ تأتـي وأخرى ترحـل بعدَ أن هدّهـا البـكاء لتأتـي أخـرى ذات حمـاسٍ متجـدد معلنةً أسـماء مناطقهـا البيروتية التـي أتـت منهـا ولتبـدأ بترديـدِ كلمـاتِ الثـأر مقفّـاةً وملحّنـة. أمـا فـي أطـراف المدينـة، فـكانَ يعبـرُ المتظاهـرون وهـم يـرددونَ شـعاراتٍ غير مفهومـة ولا أحدَ يعـرفُ مـاذا يرمـونَ مـن ورائهـا مـن دون أن تعترضهـم القـوى الأمنية التـي كانت آلياتهـا تمـرُّ بالقـرب منهم علـى عجل.

فـي اليـومِ التالـي، أرسـلَ حـازم عامليـن إلـى بيتـي لكـي يتأكـدا من سـلامةِ ومتانـةِ الأقفـال والشـبابيك. لقد حضـرا في الصبـاح الباكر مع عدةِ الشـغل وافترقا

فـي المنـزل متسـلقينَ الأبـوابَ مـن الخـارج وكل منافذ البيـت. لقد أحكمـا إغلاقَ النوافـذ التـي تطـلُ علـى «مطلـع الـدّرَج» مـن الخـارج بالقضبـان، كمـا ضاعفا من عـدد الأقفـال على أبوابِ الشـرفات والبـاب الحديدي الخارجي وأصلحـا الخلل في نافـذةِ غرفـةِ نومـي فـي الطابـق السـادس. حيـنَ انتهيـا، اتصـلَ حـازم بهمـا ليتأكد مـن أن كل شـيء تـم علـى مـا يُـرام. لم يكتـفِ بذلـك، إذ عنـد الظهيرة، أرسـلَ مع عامـلٍ آخـر تمثـالاً للسـيدةِ العـذراء بطـولِ متـرٍ وهـي فـي وضعيـةِ التضـرع لكي أضعـهُ فـي زاويـةٍ خـارجَ بـاب البيت الخشـبي ومعهـا «دزينـة» من شـموعٍ ثخينة طالبـاً أن لا تتوقـف أبـداً عن الاشـتعال. في المسـاء، عادَ واتصـلَ ليتأكد من وصولِ التمثـال وليطلـبَ منـي عـدمَ الخروج مـن دونِ علمـه، «لأني أخاف عليكـي كبؤبؤ عينـي يـا روحـي... الوضع مـش مرتـاح هاليومين وأنت سـورية».

لـم يسـهر الوسـط التجـاري لبيروت تلـكَ الليلة التـي ملأها دخـان الانفجار. كانَ الحـب وعيـده منسـيين، مؤجّليـن ومتروكيـن كصبيـةٍ صغيـرةٍ علـى قارعـةِ الطريـق. ففـي هـذا الوسـط بالـذات الذي بنـاهُ الرجـل، حفرَ آخـرون قبراً لـهُ فيه. أُغلقـت مـدارسُ المدينـة وجامعاتهـا ومحلاتهـا التجاريـة ومصارفهـا ومكاتبها بعدَ أن أعلنـت الحكومـة الحـدادَ ثلاثـة أيـام علـى المغـدور وشَـلَّ البلـدَ إضـرابٌ عام.

غـادرَ حـازم منزلـي فـي الصبـاح الباكـر. قضينـا الليل فـي المطبـخ «ندردش ونفكـر» فـي فوضـى الأيـام القادمـة. لقد كنـتُ أصغي إليـهِ بينما عقلـي يفكرُ في شراشـفِ الكروشـيه الكثيـرة التي سـوفَ تُفـرش فوقَ هلـعِ هذا البلد. لقـد بدأ هو الآخـر بالحياكـةِ أمـامَ عينـي بينما كان يرتشـفُ القهـوة التي أعددتها لـهُ بيدي.

(13)

16 شباط 2005.

امتلأت شوارعُ بيروت بنقاطِ تفتيشٍ عسكرية غير مسبوقة. لقد استدعوا الجنودَ الذين كانوا في عطلات، كما عُلّقت جميعُ الإجازات في الجيش. أما حكومةُ أمريكا التي «صُدمت وغضبت» مما حدث، فقد أخذَ رجالها يرددون أنهُ يحقُّ لهذهِ الدولة من الآن وصاعداً أن تعيشَ من دونِ عنف وبعيداً عن «الاحتلال السوري». حتى فرنسا التي احتلت لبنان سابقاً طالبت بإجراء تحقيقٍ دولي وذلكَ لأن رئيسها كان يريد «معرفة الحقيقة». لقد وقعَ لبنان في الأسر ثانية.

أيقظني اتصالُ حازم ليطلبَ مني أن لا أخرجَ من المنزل. قالَ إن الجنازة ستعمُّ المدينة اليوم لتصل، ربما، إلى أطرافِ البلد كلها، «ابقي في المنزل ولا تتحركي ولا تخرجي إلى الشرفة.. افتحي التلفزيون وانتظري اتصالاً مني».

لقد تركتني هذه الجريمة أنتبهُ لما هو أكبر من مجرد الالتفات الرومانسي إلى أرضٍ قسّمتها معاهدات وأعادت تشكيلها أحلافٌ بينما أبقى على وحدتها العائلات والأقارب الذين تفرقوا في الجهتين. أنا في المدينة التي أحب، محاصرة لا أستطيعُ الخروج إلى الشرفة كما أمرتَني يا حازم. أنا في

بيـروت، مدينـة قلبـي، المدينـة التـي زرتهـا أكثـرَ مـن مئـة مرة بـل مئـات المرات والتـي أشـعرُ بالألفـة الحلوة تجاهها. سأنسـى جـذوري اللبنانية، سأنسـى كل هذا، مـن يعـرف أصـلاً جـذوره فـي بـلاد الشـام. العائلات تشـرذمت هنـا وهنـاك وباتَ تحديـدُ بدايـة الجـذور ونهايتهـا أمـراً مسـتحيلاً. اليـوم بـدت بيـروت لـي فيلمـاً بالأبيـض والأسـود بينمـا اللاذقيـة هـي فيلـمٌ ملـون حديث. لـم تعد تغرينـي قراءة تاريخـك القديـم أيهـا البطريـرك. لقـد أصبحـت أعـرف مـن أيـن أتى البعـضُ بهذه المقـدرة علـى تصديـقِ مـا لا يُصـدّق بلمـحِ البصـر.

بيـروت تشـبهُ المـرأة العربيـة. إنهـا جوهـرةٌ جميلـةٌ فـي كل طبقاتهـا لكـن مسـتباحة ومخترقـة. إنهـا هذا القسـم الناعم المتألـم والدامي مـن تاريخنا العتيد، وهـي خـزانُ الحـزن الكربلائـي والحنـان الآسـر. إنهـا تنتظـر. وُلـدت لكـي تنتظـر. علّموهـا أن تنتظـر بعيـونٍ خفيضةٍ وقلبٍ مكسـور. قالوا لها إن الانتظار هو شـيمةُ الكريمـات والمحترمـات وبنـات الأصـول. قالـوا لها إن العيـونَ الخفيضـة هي أهمُ ميـزاتِ الأنثـى وقمـة الحشـمة والإغـراء فـي آن. قالـوا لهـا إن قوتهـا فـي ضعفهـا. طلبـوا منهـا الانتظـار، وهكـذا بقيـت متحفـزةً ومتوجسـة فـي انتظارهـا الـذي لا ينتهـي. وحيـنَ تخـرجُ هـذه المدينـة – المـرأة - عـن سـربِ المنتظـرات الصامـت تعتبـرُ مارقـةً بـكل بسـاطة. لا يوجـد بيـن بنـاتِ العـرب مفكـرات ولا متأملات ولا فيلسـوفات ولا متصوفـات كثيـراً، كما لا توجد مُدنٌ عربية كسـرت سلاسـلها كسـرةً لا رجعـةَ عنهـا وخرجـت من سـربِ الانتظار. النسـاءُ لدينـا ملتهيـات بالانتظار مثل مدننـا، مثـل بيـروت، مدينة الخدمات العامـة المثقلة بوعودِ الحـب الذي لن يأتي بينمـا هـي علـى أُهبـة الاسـتعداد بزينتهـا وخلاخيلهـا التـي صَدِئَـت بفعـلِ الزمـن الطويل.

أصبحَ لـدي شـكّ أصيـل بـكلّ شـيء، ويقيـن أصيل أيضـاً، وبيـن الاثنيـن أنا حاضـرة بـكل بسـاطة. أعـرفُ بأنـكَ أنـتَ حاضـرٌ أيضـاً يـا حـازم، وبيـروت حاضـرةٌ

معنا والانتظارُ قدرٌ كبير يجمعنا.

بدأت أصداءُ الجنازة تتناهى إلى مسامعي وأنا جالسةٌ في بيتي في جونيه. كانَ الحشدُ يزحفُ من كلّ أصقاعِ هذه العاصمة المتورمة وزوايا البلاد باتجاهِ ساحةِ الشهداء حيثُ مسجدُ محمد الأمين الذي بناهُ المغدور. ساعتين احتاجهما موكبُ الجثمان الذي كان قادماً من قصر الحريري لكي يصلَ إلى ساحةِ المسجد في وسطِ بيروت. لقد مرَّ في شوارعها المكتظة بالباكين والغاضبين وحملةِ الألوية والأعلام الذين كانوا يشتمونَ سوريا ويطلبونَ خروج جيشها ويحمّلونها مسؤوليةَ القتلِ المباشر المتعمد. لقد رفضت عائلةُ الرجل أن يكونَ تشييعه رسمياً وتركت الشعب يتكفلُ بالأمر؛ هكذا انقلبت الدنيا رأساً على عقب بلمحِ البصر. وبينما أصواتُ الإدانة تعلو كانَ هناك أصواتٌ أخرى تطالب بحمايةٍ دوليةٍ خارقةً أكثرَ الثوابتِ الوطنيةِ بداهةً، على حين كان رئيس البلاد يُصرّ، متجاهلاً كل هذا الجنون، على تأليف حكومةِ وحدةٍ وطنية. أما في دمشق، فقد كانَ هناك قلقٌ من نوعٍ آخر يجمعُ بين الصدمةِ والرغبةِ في استيعاب ما يجري. لقد حزمتِ السفيرة الأمريكية أمتعتها وغادرت العاصمة المذهولة على عجلٍ إشارةً إلى غضبِ حكومتها وإدانتها. أما أصواتُ النوايا الحسنة فبدت مثلَ من يخط في الماء بين هذا الهرج والمرج الفالتين من عقالهما. لقد جعلني كل هذا أرتعدُ من الخوف حتى شعرتُ أني لن أصل اللاذقية إلا في كفنٍ أنا الأخرى. لقد بدأت حياكةُ الكروشيه بعدَ الحادث مباشرةً من دونِ توقف حتى بدا أن هناكَ ما يكفي منهُ لتكفين البلد كلها؛ سكانها وأحزابها وطوائفها وحتى جيشها؛ كروشيه كثير بثقوبٍ كثيرةٍ حِيكَ على عجل لتكفين الدنيا والآخرة.

اتصل عبد السلام، ناشري السوري – اللبناني، ليطمئنَّ عليَّ وليطلبَ مني أيضاً أن «لا تخرجي اليومَ من البيت... الطرقاتُ مقطوعة... سنؤجلُ حفلة توقيعِ

روايتكِ ريثما تهدأ الأمور.. أنا أشمُّ رائحةَ حريقٍ هائلٍ قادم... خلّي نَفَسك طويل ولاتضطربي».

- أنا مرتبكة وعقلي توقف عن التفكير!!

- كلنا مثلكِ... الأمورُ لم تعد مثلَ قبل... إذا كنتِ قادرة على العودة إلى اللاذقية هذه الفترة، عودي.

- لكن حازم...

قالَ بحسم:

- مريم... حازم مُعسكِر في (دارِ النهار).. لن أشرحَ أكثر من هذا.. انسي هذا الرجل.. أرجوكِ لا تتضايقي من كلمتي... افعلي ما أقولهُ لكِ.. عودي إلى سوريا الآن وسنبقى على تواصل.

أغلقتُ الخط على كلماتِ عبد السلام التي تضربُ أذني بينما ما زلتُ أسمعُ أصداءَ الحشدِ الزاحف من بعيد تهدرُ في الأذن الأخرى. لابدَّ أنّ الرجل الآن قد وُرِيَ الثرى. كل شيءٍ في بيروت وُرِيَ الثرى حتى قلبي. أينَ أنتَ يا حازم؟ ماذا يكلفكَ اتصالٌ صغير أم أنتَ مشغولٌ بحياكة الكروشيه مثلَ الآخرين؟ أعرفُ أنكَ قاومتَ التهكم الخفيف الضاحك من أصدقائك الصحفيين في بداية علاقتنا، «ما عرفت تعلق إلا ببنت سوريّة... سوريّة يا حازم!!!»، وأنّ ردكَ كانَ يحملُ رائحةَ تاريخنا المشترك فجعلتَ أكثرهم تشدّقاً يدفنُ ضحكتهُ ويرحل. أعرفُ كيفَ اعتذروا منكَ وأبدوا إعجابهم التهكمي أيضاً وهم يروني على التلفزيون، المصدر الأكثر تصديقاً بالنسبةِ إليهم، أتحدثُ عن أعمالي الأدبية، «لا والله عرفت تنقّي... من وين جبتها؟ أكيد برمت كل سوريا حتى شفت هيك وحدة؟!»، وأعرفُ أن ردكَ مرةً أخرى كانَ أكثرَ حسماً وأنكَ متمسكٌ بي بالرغمِ من حجرِ التاريخِ القذر الذي يهدُّ كتفيكَ والذي يوعزُ للآخرين أن «الاستقلال الكبير هو من السوري وليسَ من أي أحدٍ آخر». أعرفُ أنكَ

ستتزوجُ الآن من معسكرِ الأعداء القدماء بالنسبةِ إليهم، هم الذين ما زالت ذاكرتهم طرية ومنتعشة من قذاراتِ الماضي. أعرفُ كل هذا وأصغي إليه كما أُصغي إلى معتوهٍ هاربٍ من «العصفورية»، أو طفلٍ صغير أو أحمق يجوبُ الشوارع. لا أستسيغ نكات أصدقائكَ الفجة، ولا أحبّ التعالي الباطل، وهذا التمييز الغريب الذي يجعلهم يصدقون أنهم «شعب الله المختار»، أنا التي لم تعرف لا الطائفية ولا الطبقية طريقها إلى بيتي ولا إلى روحي. هل أخبرتكَ يا حازم أن والدي كانَ يلزمني أحياناً بتناولِ الغذاء مع عمالهِ في ورشِ البناء. كان يناديني كلما رآني قادمةً الى مكانِ عملهِ، «تعالي يا مريم تناولي الطعام معنا». كنتُ أراهُ جالساً معهم على الأرض في حلقةٍ صغيرةٍ أمامَ «جبّالةِ الباطون» وأكوامِ الحجارة وأكياس الإسمنت. كانَ يذهلني بتعاطيهِ مع عمالهِ وحنوّه عليهم. بعدما توفي، دُهشتُ من عددِ العائلات التي كان يمدها بمعيشتها خفيةً وسرّاً. هكذا عشتُ يا حازم وهكذا أنا. اتصلْ بي. اتصلْ وقُل لي أنكَ لن تقبل أن تمشي في مسيرةِ اتهامي التي رأيتها في عينيكَ وأنا أعدّ لكَ العشاء في المطبخ، وسيكونُ حبكَ أقوى من هذا الهوس المُرّ بالتحزّب والتطرف الذي قلبَ البلدَ على رؤوسنا وجعلَ حياكةَ الكروشيه أهمّ صناعةٍ فيها. اتصلْ وقلْ لي إنكَ قادمٌ إليَّ لأنكَ توقفت عن الطيران في سربِ التيه، وأن علمكَ وثقافتكَ وتاريخكَ يحتمُ عليكَ أن تتطلعَ في أفقٍ أبعد، وترمي بصنارةِ صيدكَ في ماءٍ أعمق وأكثر صفاءً. اتصلْ واجعلْ هذا الحب ينتصر على الثرثرات الكثيرة وامنعْ خيالي من رؤيتكَ مرفوعَ الأكمام كموظفٍ قديمٍ «بطربوش عصملّي» منشغلٍ بحساباتِ شركةٍ شبهِ مفلسة. إنني مذهولةٌ يا حازم من هذه الوجوهِ الغاضبة المستعرة التي تفتحُ أفواهها صراخاً على شاشاتِ التلفزة. من أين أتوا بكلِّ هذا الحقد المكبوت. حتى أعداء الرجل كانوا غاضبين ويلوحون بقبضاتهم انتقاماً، يلوحونها في وجهي أنا حتى أني

كـدتُ أشـعرُ بـرذاذِ الشـتائم يختـرقُ الشاشـة ويصـلُ إلـيّ كصفعـةٍ مدوّيـة. لقـد توفـي والـدي منذُ خمسـة عشـر عامـاً تماماً قبـلَ انهيارِ الاتحاد السـوفيتي بأشـهر وتفتتـه إلـى دويـلات، وقبـلَ توحـدِ شـطري اليمـن والألمانيتيـن، وغـزو العـراق للكويـت، واجتيـاح العسـكر السـوري لجبـل لبنـان، وكتابـة أول صفحـة «ويـب»، وخـروج مانديـلا مـن السـجن. كانَ مـا زالَ متعلقـاً بأهـدابِ الأحـلام التـي تنشـدُ وحـدة الأمـة وإمكانيـة عـودة الأمـور إلـى نِصابهـا ولـو بالخطـب، ولـو بالقصائـد الحماسـية والوقـوف دقيقـة صمـت على أرواحِ الشـهداء أو تحية للنشـيد الوطني. لقـد رأيتـهُ يبكـي عـدةَ مـرات أمـامَ جمـلٍ مؤثـرةٍ لحـكام برعوا لاحقـاً، بعـد موتهِ، فـي بيـعِ بـكارةِ الوطـن «بالجملـة والمفرق». أشـكرُ الله أنـهُ مات ولم يـرَ الأهوال وخيبـات الأمـل تنطلـقُ فـي سـماءِ الأمـة مثـل الألعـاب النارية. أمـا أنت يـا حازم، فـكل مـا عرفتـهُ هـو أهـوالُ الحـرب الأهليـة، وهـذا التشـبث المفـرط بالأيقونـات وثقافـة راكمهـا الألـم، وفكرة السـيادة المشـوهة، وحـب أتى هكذا مثـل الصاعقة فـي غفلـةٍ عـن الزمن.

(14)

انتزعني جرسُ المنزل من أفكاري. كانَ حازم على الباب. لم يتصل كما كنتُ أتمنى وإنما أتى في توقيتٍ مستحيل.

- كيفَ أتيت؟ من أي طريق؟

لم يرد ولكنهُ حضنني وأجهشَ بالبكاء وأنا ما زلتُ في حيرتي وارتباكي. بعدَ أن جلسنا الواحد مقابلَ الآخر، أمكنني أن أنظر مباشرةً في عينيهِ الباكيتين المُحمرتين. كان البؤبؤ يرتجفُ في مكانهِ وكذلكَ يداه. هل يريدُ أن يقولَ لي شيئاً؟ رغبتُ أن أتركهُ لكي يتحدث براحتهِ ولذْتُ بصمتٍ متألم ومتفهمٍ في آن، لكنّهُ لم يتفوه بكلمةٍ ولم يقترب مني واكتفى بالابتسام والتطلع بي ساهياً وأنا ما زلتُ صامتةً أتطلعُ إليه بنفسِ النظرة. ومرَّ وقتٌ قبلَ أن يمسكَ بأيقونةِ العذارء المتدلية من صدرهِ ويقول:

- مريم.. أحلفُ بهذهِ الأيقونة إني أحبكِ أكثر من روحي.

- وإذاً.. ما بك؟

- قبلَ أن أكمل انظري إليّ وأجيبيني بصدق.. هل ما زلتِ تريدينَ أن تكوني زوجتي؟

- ماذا يعني هذا السؤال؟

وصلت أصواتُ المتظاهرين وكلمات التنديد وشعارات السيادة إلى مسامعنا وهي تخفقُ مارةً بالقربِ من المنزل، فصمَتْنَا. لقد كانَ كل شيء واضحاً، لكنهُ أكملَ كلامهُ بعزمٍ كمَن يقتلعُ مسماراً قديماً من حائط:

- يعني أريدكِ أن تتجاهلي ما تسمعين، ولا تأخذي كل شيءٍ بشكلٍ شخصي. كوني معي في صفي. ستكونين زوجتي، معي ولي، ولن يحاسبكِ أحد على رأي قلتيه أو كلمةٍ تفوهتِ بها... ستعيشينَ هنا وسندفنُ معاً في نفس القبر... هناك في غزير... دعينا ننسى ما حدث ونكمل كما نحن.. هيا.. هيا قولي كلمة. لستُ أنا من أتهم.. إنه الشارع..!!

- وأنت؟

- يا مريم... كانت جرثومة الحرب معدية. أنا أصبت بها مثلَ كثيرين وما زلتُ مصاباً. كم مرةً أطلبُ منك النظر إليّ؟ انظري إليّ ودققي في ملامحي. انظري إلى عينيّ وتفاصيل جسمي. تطلعي إلى روحي. إنها هناك جرثومة الحرب عالقة فيها. لقد حاولتُ معالجتها بالصلاة وصور القدّيسين والحضور المواظب على قداديس يوم الأحد فلم أفلح. عالجتها بمحاليل السياسة المتلونة، بالصحافة. عالجتها بكل ما يخطر وما لا يخطر على بال. وها أنا اليوم أداويها بالعشقِ لعلني أشفى. ماذا يداوي جرثومة الحرب سوى الحب؟ ماذا؟ هيا قولي. حُبكِ أنتِ؟ حُبكِ أنتِ يا مريم.

تركتُ حازم يتحدث كما لم يفعل من قبل. كان متدفقاً ومتألماً. حدثني مرةً أخرى عن الحرب. كانت ذاكرتهُ طرية مثل قبلاتِ الأمس، وذكريات القتال والذبحِ على الهوية ماثلة في كل حلمٍ من أحلامهِ. لقد سلمهُ الحزب في حيّهِ كلاشنكوفاً وهو ما زالَ في الخامسة عشر من عمره، كلاشنكوفاً عليهِ صورة لمريم العذارء ثم طلبَ منهُ أن يربضَ على نافذةِ المنزل ويبدأ بقنصِ «الأعداء». قالَ إنهُ قتلَ الكثيرين. لم يعرف هويتهم ولم يدقق في ملامحهم

مـن البعيـد. كانَ يربـضُ فـي مكانهِ مختبئاً، يُطلـقُ الرصاص علـى كل غريبٍ يدخلُ الحـي. لـم يعـد يذكـر عـدد القتلـى لكنهُ يعـرفُ أنهُ مـع مـرورِ الوقت أصبـحَ الأمرُ مسـلياً ومـن دونِ أي تأنيـبِ ضميـر، أو هكـذا بـدا الأمرُ لـهُ حينها. لكـنّ الكوابيس لاحقتـهُ بعـدَ ذلـك ولـم تتركـهُ من يومهـا. لقـد كانَ ببسـاطة مصاباً بمـرضِ الحرب العضـال. ربمـا كانـت القديسـة جـان دارك إحـدى هـذه الكوابيس، واللـه أعلم! أو ربمـا أتـت فـي حلـمٍ هـربَ سـرّاً مـن رقابـةِ هـذهِ الجرثومـة القاتلـة الفتاكـة، مَـن يـدري! حدثنـي حتـى عـن جارتهِ اليهوديـة المتزوجة بمسـيحي منذُ أربعيـن عاماً. قـالَ إنهـا كانـت تتخفـى بـزيّ رجالـي، مـزودةً بسـكين مطبخهـا الحـادة لتذهـبَ تحـتَ جُنـحِ الظـلام إلـى الأماكـن التـي تكثـرُ فيهـا الجثـث، فتقطـعُ أصابعهـا لكي تسـرقَ الخواتـم الذهبيـة التـي كانـت ملوثـة بالدمـاءِ والأشـلاء. هـي اليـوم جـدة مريضـة تُكثـرُ مـن التدخيـن والثرثـرة فـي بيتهـا الكبيـر الفـارغ مـن الأولاد الذيـن هاجـروا والـزوج المتوفـي. حدثنـي عن رفاقِ حيّـهِ الذين تركوا مدارسـهم وأصبحوا «زلمـاً» عنـدَ زعمـاء ألبسـتهم الحـرب الحرير وأطعمتهـم بملاعق الذهـب. البعضُ منهـم أصبـح نائبـاً فـي البرلمـان اليـوم. تحدثَ حـازم كثيراً ثـم خرجَ مـن بيتي كما يخـرجُ أي ضيـفٍ آخـر. ابتسـم لـي بينمـا كنـتُ أودعـهُ علـى البـاب ثم ربّـتَ على كتفـي ورحـل. كنـتُ أرتجـفُ مـن حـدةِ الواقـع مـن رأسـي حتـى أخمـص قدمـي لكنـي تماسـكتُ بشـكلٍ جعلنـي أُشـفقُ علـى نفسـي. لسـتُ مـن النـوعِ الهـادئ الـذي يتماسـكُ مهمـا حصـل، وإنمـا أنـا قِـدرٌ يغلـي. تطلعـتُ إليـه وهـو يسـتقلُّ المصعـد وكأنّ الدنيـا قـد أصبحـت علـى طرفِ هاويـة. التفتَ ورمى بقبلـةٍ صغيرة مرتبكـة فـي الهـواء قبـلَ أن يُغلـقَ بـاب المصعـد عليـهِ ويختفـي. عندمـا أغلقـتُ بـابَ البيـت شـعرتُ فـي الحـال أن الجـدران تقتـربُ مـن بعضهـا البعـض وتضغط علـيّ، كأنـي بـدأتُ أقـرأ فـي فنجـانٍ مقلوب ما سـيحدث.

قـررتُ العـودة إلـى اللاذقيـة في اليـومِ التالي. قلتُ في نفسـي سـوفَ أخبرُ

حـازم بعـدَ أن أصـل. كانَ ا لـى الاحتمـال. اتصلتُ بخليـل السـائق السـوري فوجـدتُ هاتفـه الخلـوي مقفـلاً فعلمـتُ أنـه لـم يـأت. اتصلـتُ علـى رقمـهِ السـوري فـردَ بلكنتِـهِ اللاذقانيـة الممطوطـة البطيئـة، «واللـهِ أنـا مـا جايـة هاليومين. أشـو مجنون أنا! بيكسـرولي السـيارة... بـدك تدبري حالك مـع شـوفير لبنانـي يـا سـت مريـم. والله كنـت بخدمـك بعيونـي.. بس ويـن بدي أجـي.. مجانيـن وفالتيـن. واللـه بـروح قتـل!». لـن أسـافر مع أحـد، وسـوفَ أنتظرُ أياماً أخـرى في بيـروت، وسـأرى ماذا سـيحدث.

(15)

كنتُ على يقينٍ أن هناك ترخيصاً بالقتل من جهة ما. لم يكن هذا الترخيص ابن يومهِ ولكنه بدأ في وقتٍ أبكرَ بكثير. لقد وضعَ على لائحتهِ قادة ورجال أمنٍ وسياسيين طابَ لهم الهوى الوطني من جديد بعد أن كانوا غائبين عن الوعي لفترةٍ طويلة، كما كان عليها مفكرون وفنانون عارضوا ورفعوا أصواتهم وأرادوا تغييرَ واقع الحال. لقد كانت اللائحة طويلة ومتشعبة، حتى أي عابرِ سبيل كانَ بإمكانهِ أن يرى هذا الخيط الوحيد الذي يجمع هذه الأسماء؛ لقد عادت كلها إلى صوابها الوطني وقالت لا، وهكذا تم اغتيالها، إما وهي في حالة غيابِ هذا الوعي لكي تتهمَ جهات أخرى بعينها بقتلها، أو وهي عائدة إلى وعيها، وهنا الخطرُ الأكبر.

هل قلت جهة ما؟ ربما هي أكثر من جهة تتضارب وتلتقي مصالحها وأهدافها في شبكةٍ فوضوية لا أولَ ولا آخرَ لها. لكن اللعبة بسيطة جداً، بل إنها لكثرةِ سذاجتها تلوحُ شفافةً في كذبها. باختصار، من يضع السكين على رقبتي كل يوم لا يمكن أن يحمي طفلي، ومن يعيث خراباً كل يوم في حديقتي لا يمكن أن أصدق أن الوردة التي يمدّ يدهُ إليّ بها هي وردةٌ لها رائحة حقيقية، ومن يُهجّرني من بيتي ويُطهّرُ عرقي ويُصفّي طائفتي لا

أصدق أنه يعرفُ كيف يرسمُ إشارة الصليب على صدرهِ. هل قُتل الرجلُ لأنه عارض، كما أُشيع، بناءَ قواعدَ أمريكية في البلد؟ هل قُتلَ لأنه لم يعد يؤمن بالصداقات القديمة؟ هل قُتل لأنه أخذَ يلوح وكأنه أكبر من البلد نفسها؟ مهما كانَ السبب وراءَ قتلهِ، فإنهم يريدونَ أن تصلني نفسُ الرسالة الوحيدة: اتركي كل شيء وارحلي واحتفظي للذكرى إن شئتِ بمفتاحِ البيت في جيبك. يا لقصةِ مفتاح البيت المؤلمة هذه! مئاتُ الآلاف من المهجّرين ما زالوا يحتفظونَ بمفاتيحِ بيوتهم. المفاتيح الطويلة البرونزية التي لا يوجد مثيلٌ لها اليوم. إنها مفاتيحُ الخانات والبيوت الحجرية الرمادية ذات الارتفاع القليل. إنها مفاتيحُ غرفِ المؤونة في المنازل والغرف التي تأوي حطبَ التدفئة وطعامَ الدواب وأسمدةَ أشجارِ البرتقال والزيتون وغرف الجدّات، مفاتيح الحب المتروك مثلَ أسرّة المنازل التي غادرها أصحابها في الصباح على عجل، على أملِ العودة الحتمية في المساء لأنهم ينتمون إليها وإلى شراشفها والأغطية، ينتمونَ إلى «حرامات الصوف» التي حاكتها الأمهات قطبة قطبة في ليالي الصيف والشتاء، حرامات الحب والتمريض والحنان. تتكاثرُ مفاتيح البيوت العربية التي تركها أصحابها، تتراكمُ مثلَ جبلٍ معدني، مثل مقلبٍ للحنين والتأوهات والحسرات. وأنا اليوم عليّ أن أنحني أمامَ هذا المقلب الهرمي المقدّس وأضعُ مفتاحي المعاصر فوقهُ بهدوء وانكسار ثم أستوي لكي أصلي لراحةِ نفوسِ المالكين.

ازدحمت كل هذه الأفكار في رأسي دفعة واحدة وأنا أفتح عيني على يومٍ جديد. كل شيءٍ هادئ في هذا المنزل. لا صوت يتناهى إليَّ في هذه الساعة من الصباح الباكر، لا اتصال، لا قرع على الباب، لا شيء سوى الأفكار التي تروحُ وتجيء حاملةً معها توجساً جديداً وإحساساً غريباً بدأ يتنامى داخلي. لم تحضرني صورةُ وجهِ حازم كما هي العادة عندما أفتحُ عيني صباحَ كل يوم. لم أشعر بهبةِ السعادة الصغيرة تغمرني وأنا أرتبُ عالمي الداخلي

على توقعاتِ الحب والعيش اللذيذة في هذه المدينة الدافئة. لقد كانَ هناك ضجيج حاد في رأسي وتشوش لا أعرفُ كيف أتخلصُ منه.

كانت شوراعُ بيروت ساكنة تغلي في مرجلها. سيارات أجرة وأخرى خاصة مهرولة هنا وهناك، وأخرى للدّرَك مكشوفة وقد أخرجوا بنادقهم ولبسوا الخوذات إمعاناً في الحضورِ الأمني. لقد بَدَت الدنيا هاجعةً على جمراتها من نافذةِ غرفةِ نومي بينما يَلوحُ تمثالُ سيدة حريصا بعيداً وقريباً في آن. فكّرتُ باللاذقية، قلتُ أن الحياة هناكَ ربما تسيرُ كما هي. الأمنُ فيها ليس استعراضاً وإنما يتحركُ تحتَ الأرض مثلَ مقاتلي الجبال والمغاوير؛ عيونٌ ساهرة جعلت البعضَ يتأففُ منها بينما سمحت لي بأن أسيرَ وحيدة في شوراعِ المدينة في منتصفِ الليل من دون أن يعترضني أحد. لقد كانت كفّةُ الميزان حاسمةً بالنسبة إلي، فلقد تعلمتُ درسَ الأمن مبكراً ولم أضعهُ أبداً في الكفّة الأخرى من الميزان مع الديمقراطية، لأن كفّتها لم ولن ترجح بالنسبة إلي أبداً. أنا حرّة. أشعرُ أني سأبقى هكذا في مدينتي الصغيرة، حرّةً ومن دونِ قيدٍ على عقلي. ليست المسيحية فريضة. لقد رأيتُ في المسيح متمرداً على كل الإرثِ اليهودي وعلى نظرياتهِ الفاشلة في الحب. وحينَ قالَ: «اترك كل شيء واتبعني»، لم أفهم أنّ عليّ أن أتبعه هو شخصياً وإنما هذا الشغف داخلي للحقيقة. هكذا تركتُ نفسي أفهمُ علاقتي به وبالدين الذي وُلدت في منزلٍ يعتنقه أفراده بشيءٍ من الوَرَع. عليَّ، إذاً، أن أتمسكَ بالحب وأهملَ الباقي، وحينَ أجدُ نفسي في أرضٍ خاليةٍ منهُ، فسوفَ أفكُّ سرجَ ناقتي وأنفضُ غبارَ نعلي وأرحلُ عنها. أما مفتاحُ البيتِ فسوفَ أتركهُ فوقَ المقلب المقدس بين ملايين المفاتيح التي أنهكها الحنين والصدأ.

لم يتصل حازم طوالَ قبلِ الظهر. بدأتُ أقلقُ بدافعِ الفضول وربما أكثر، وكذلكَ لم يتصل ظهراً ولا حتى بعد الظهر، ولم أفعل أنا أيضاً، وهكذا

بقـي الزمـن رهـنَ التوقّـع. أيامٌ أخـرى في بيـروت بانتظـارِ المجهول، والناقـةُ التي عقلتهـا أسـفلَ المنـزل بـدأت تتململ وتشـكو.

لـم ينتـهِ النهـارُ إلا وقـرعٌ مهولٌ على البـاب يكادُ يخلعهُ من مكانـهِ. إنهُ عبد الرحمـن، البـوّاب السـوري. حيـنَ فتحـتُ الباب رأيتُـهُ متوثّباً لا يعـرفُ كيفَ يتكلم وعلامـاتُ القلـقِ الكبيـرِ علـى وجهـهِ الباكـي بينمـا لُفّـتْ يـدهُ اليمنـى بالجبـس الأبيض السـميك:

- «شو في عبد الرحمن؟»

ردَّ وهو شبهُ باكٍ:

- «والله يا ست مريم ما لازم تبقي لحظة هون».

كان عبـد الرحمـن نائمـاً فـي غرفتـهِ بالقـربِ مـن مدخـلِ المبنـى عندمـا اقتحـمَ ثلاثـةُ شـبان ملثّمـون غرفتـه وأوسـعوه ضربـاً حتـى قبـلَ أن يوقظـوه. لـم يعـرف مـاذا حـدث كمـا قالَ لـي. لقد فتـحَ عينيهِ علـى الضربـات والشـتائم تنهالُ عليـهِ مثـلَ زخِّ المطـر. قـالَ لـهُ أحدهم، بعـدَ أن كوّمـوه على الأرض وكسـروا يده: «هالمـرة ضربنـاك، تانـي مرة إذا منشـوفك هون، بترجع ع سـوريا بتابوت». وقبلَ أن يخرجـوا، حـذّرَه أحدهـم: «إياك تخبّر الشـرطة.. بتكون حفرت قبـرك بإيدك..».

لـم أعـرف بماذا أردّ على عبد الرحمن الباكي والواقف أمامي بيده المكسـورة. طلبـتُ منـهُ الدخـول ريثمـا نفكـر مـاذا نفعـل. كان حـازم أولَ مـن خطرَ علـى بالي. اتصلـتُ بـهِ عـدة مـرات قبـلَ أن أتمكـن من سـماعِ صوتـهِ الذي وصـلَ إلـيّ ممزوجاً بضجيـجٍ وأصـوات آخريـن يتحدثون بحدةٍ ويتصايحون. قالَ إنه بالكاد يسـمعني وأنه سـيتصلُ خـلالَ دقائـق. حينَ تمكنـتُ أخيراً من سـماعِ صوتهِ بهـدوءٍ وصفـاء، أخبرتُهُ بمـا حـدث فصمـت، ثم قالَ إنـهُ كانَ يتوقعُ كل هذا كردّةِ فعـلٍ انفعالية لدى البعض. تمنـى علـى عبـد الرحمن البقاءَ وعدم السـفر، لأنـه «مش رح يصير أكتـر من هيك». اطلبـي منهُ أن ينتظرني في المسـاء.

رفـضَ عبـد الرحمـن [illegible] الَ إنـه سـيغادر خـلالَ أيـام ريثمـا يرتـبُ أمـوره، وتمنـى أن نعتبـره مسـتقيلاً منـذ اللحظـة من عملهِ. سـمعتُ نبـرةَ التصميـمِ فـي صوتـهِ. لقد شـعرَ الرجل بخطرِ المـوت. الأمرُ ليـسَ مزحة، لقد رأى الشـرر يتطايـرُ مـن أعينهم والغضـبُ العارم فـي أصواتهم التي كانـت تتوعدهُ بحـدة. «خلـص مـا عـاد إلـي خبـز بهالبلـد.. رح ارجـع ع سـوريا مربّـط وبـدون مصـاري.. اللـه بيعين..».

لـم يكـن عبـد الرحمـن الوحيـد الـذي لقـي هـذا الحتف، فلقـد أخبرنـي أنّ ابـنَ عمـهِ الـذي يعمـلُ فـي مرآبٍ للسـيارت قـد بـدؤوا التحقيـقَ معه. لقـد وصلَ الـدّرَكُ إليـهِ مـن دونِ إنـذار وأخـذوا جوالـه، وحينَ احتـجَّ أجبروهُ على وضـعِ يديهِ علـى الجـدار ثـم انهالـوا عليـهِ بالضـرب. لقـد قـرّرَ العـودة هـو أيضـاً إلى سـوريا. كيـفَ يفعلـونَ ذلـك؟ إنهـم لا يفتحونَ تحقيقـاً عندما تقفـزُ خادمةٌ سـيريلنكية أو فيليبينيـة أو أثيوبيـة مـن الشـرفة لمعرفـةِ فيمـا إذا كان الحـادث انتحـاراً أو غيـر ذلـك!! علـى عبـد الرحمـن وابـن عمـهِ أن يكونـا أكثـرَ حـذراً مـن أي وقـتٍ مضى. لقـد ولّـى عهدُ الرومانسـية والغزل الأريحـي والعنجهيات العاطفيـة إلى غيرِ رجعة كمـا يبـدو، كمـا لا يوجد «قرنة» رسـمية في لبنـان يمكن أن يلجـأ إليها هؤلاء لكي يقومـوا بشـكوى الاعتـداء عليهـم. ربمـا قصةُ وحدةِ الحال و«سـوا ربينـا» هي أكثر ألمـاً ممـا نظـن. ربمـا هـي «كليشـيه» مـن بيـن كليشـيهات عديدة خلقت شـكل هـذه المرحلـة وأعطتهـا صفتهـا وجعلـت فكـرة القُربى والأخـوة «تابـواً» لا يمكن اختراقـه. العلاقـة بين لبنان وسـوريا تشـبهُ قصةَ حُـبٍّ من طرفٍ واحـد. هكذا كانَ الأمـر دائمـاً، ولقـد طَفَـت هـذه الحقيقـة على السـطح فـي أولِ فرصةٍ كمـا طَفَت معهـا حقائـق أخـرى كانـت تجمعُ وتفـرّقُ الأخـوة الأعداء.

(16)

لقد أخذَ التاريخُ يميعُ ويستطيل أمامَ ناظري. لطالما كانت تؤلمني قصصُ الحب من طرفٍ واحد. أرى فيها ألماً لا يُطاق وغباءً أيضاً. تُرى، ماذا يدفعُ امرأة أو رجل للاستمرار في عاطفةٍ يعرفان أن لا رَجْعَ لها؟ هل يأملان أن يرقَّ قلبُ الحبيب يوماً ما؟ الحبّ لا يُصنع ولا يُعدّ لهُ ولا يُهيّأ له ولا يُركَّب أو يؤلَّف أو يُبرمَج أو يُحضَّر. الحبّ لا يكون بقوة الإقناع ولا حتى بقوةِ الإرغام القسري ولا حتى بقوةِ الإغراء. الحبُّ عصيٌّ على كل هذا. فإن حضرَ فإنهُ يحضرُ من دونِ مقابل وعلى طبقٍ من ذهب وإن لم يحضر فإن الله وحده فقط قادرٌ على خلقه. لقد حرّكت القديسة جان دارك الحبّ في قلبِ حازم في واحدٍ من أحلامهِ الكثيرة. أَرَتْهُ صورةَ وجهي وقالت: ها هي التي ستعثرُ عليها في عزاء والتي ستكون عزاءً لك. وحين لمحني عرفَ أنّ ما يجمعنا هو أقوى وأقسى من الحب. إنه إملاءُ القدر الذي انصاعَ لهُ بكل طاعةٍ وانصعتُ أنا له بقوة العدوى.

وددتُ لو بدأتُ بكتابةِ روايتي اليوم بالذات عن العمال السوريين في هذه البلد. لقد شعرتُ بضحالةِ ما كتبت وأنا أتطلعُ في عيونِ عبد الرحمن الشاكية. شعرتُ بأنها لم تكن سرداً، لم تكن عملاً يضعُ الإصبع مكانَ الجرح

النازف، لم تكن ما أريدها الآن أن تكون. لم أكن أعرف أنّ الوجعَ الكبير لم يأتِ بعد وأنّ الحديثَ عن حقوقٍ غير موجودة ومكافآت ماليه قليلة وقِلة احترام إنما هو نزهة جميلة أمام ما يحدث اليوم. لقد مسحَتْ دموعُ عبد الرحمن 350 صفحة بكل سهولة وكأني كنتُ أحرثُ فوقَ صفحةِ ماء. لا، ليست قصة الحب من طرفٍ واحد حديثة العهد بين البلدين، فلقد رأيتُ فصولها تبدأ قبلَ هذا التاريخ بكثير، بعدَ استقلالِ لبنان ورحيلِ العسكر الفرنسي الأرستقراطي عن ربوعها. لقد قَدِمَ العمالُ السوريون للعمل في الزراعة فيها، العمالُ المسلمون، وهكذا أوقعت أعدادهم المتدفقة الرعبَ في قلوبِ الخائفين على التوازن الطائفي. تُرى، ماذا يرعبُ أهلَ هذا البلد الجميل، بلد الحب الأزلي، سوى هذا الأمر؟ قوى من الحب

حضرَ حازم في وقتٍ متأخر ليلاً. لم يكن لوحدهِ، وإنما كانَ هناكَ رجلٌ آخر برفقتهِ. كنتُ قد شرعتُ في صلاةٍ عفوية بيني وبينَ نفسي وأنا أتطلعُ إلى تمثالِ سيدةِ حريصا من شباك غرفةِ الجلوس. كانت السماء السوداءُ صافية والقمرُ المضيء مغروساً في عمقها والأضواءُ تقوى وتخفت متلألئةً على الجبالِ المطلة على خليجِ جونيه الخلّاب.

مارك اسكندر، محامي صديق وناشط في مجال حقوقِ الإنسان. هكذا عرّفني حازم على صديقِهِ وأنا أستقبلهما على الباب. دخلا بهيبةٍ إلى الصالون، مارك بقامتهِ الطويلة وبنيته القوية التي تشبهُ بنيةَ مدرّبِ رياضة، وحازم بفوضويتهِ وتعبهِ. جلسَ الضيفُ على أريكةٍ مُنفصلة ملأها بسهولةٍ بينما جلسَ حازم بالقربِ مني وخطفَ يدي وأبقاها بين يديهِ وهو يضغطُ عليها بخفةٍ. مارك مسيحي لبناني في الثلاثين من عمرهِ، «علماني مثلكِ»، كما قالَ لي حازم بسخريةٍ مُبطّنةٍ خلالَ حديثنا الطويل لاحقاً. لم يَعِ سنواتِ الحرب بسببِ سنّهِ الصغيرة آنذاك. وُلد في الـ 75، في بدايةِ الحرب الأهلية ثم تركها مهاجراً

في نهايتها إلى فرنسا مع عائلته ليكملَ تخصصه فيها في القانون الدولي. لقد عاصرَ حربَ السنتين التي أعادت تشكيلَ مناطق الاختلاط الطائفي في بيروت ودخول قواتِ الردع العربية، ثم الاجتياح الإسرائيلي واحتلاله لجنوبِ لبنان، ثم الاجتياح الثاني وطرد منظمةِ التحرير الفلسطينية من لبنان، واستلام الكتائب اللبنانية للسلطة، ثم حرب الجبل وحرب الأخوة وحرب التحرير وحرب الإلغاء، وانتفاضات كثيرة للأحزاب اللبنانية وإلغاء هذه الانتفاضات، ودمار مناطق مسيحية وأخرى مسلمة، لتنتهي الحرب بدخولِ سوريا إلى لبنان وتوقّف أصوات القذائف العاطفية. لقد عاصرَ مارك كل هذهِ الأحداث من دونِ مشاركةٍ فيها أو وعي كامل بها. لكنه عادَ بعدَ أن أنهى دراسته لكي يساهم «في تغييرِ البلد»، كما شرحَ لنا لاحقاً. لقد اكتملَ فهمه لما حدث وهو يتابعُ علومه في جامعة باريس حيثُ وجدَ الفرصة ليتقربَ من زعيمٍ لبناني كانَ يعيشُ في المنفى اسمه ميشيل عون، يملكُ تصوراً عن لبنان الحر والمستقل، وليصبحَ من أهم أعوانهِ.

- أخبرني حازم ماذا حصل للبوّاب عبد الرحمن. علينا أن نتوقعَ أشياء كثيرة ستحصل من هذا القبيل. البارحة قُتِل مزارع سوري بطريقة مشبوهة طعناً بالسكين. أنا تولّيتُ أمر التحقيق بالقضية بالرغم عنهم. كانوا يحاولون تجاهلها وتصنيفها تحتَ عنوان «فورة دم» بسببِ مقتلِ الحريري مؤخراً، لكني لم أقبل. أنا أحاولُ تجميعَ أكبر عددٍ من القضايا. أتمنى أن لا أعثرَ على الكثيرِ مثلها ولكن كما أرى، سوفَ يقعُ المزيد.

الخوف يعملُ أكثرَ من ذلك، الخوفُ من الجهتين، قالَ حازم وهو يطرفُ عينهُ تجاهي.

لقد شرحَ مارك واستفاضَ عن مناخ التمييز الاجتماعي الذي قالَ إنهُ أمرٌ حقيقي في لبنان. قالَ إن العلاقة بين العمال السوريين وأرباب عملهم من

اللبنانيين تشبهُ «زواجَ المصلحة»، فعندَ أولِ رميةٍ ليمينِ الطلاق يجدُ العاملُ نفسه «خارجَ البيت» في الشارعِ مع حقيبته من دونِ مُعيل. لقد دخلَ من دونِ تأشيرة وهو يعملُ من دونِ ضمان، وعندَ أولِ تذمّرٍ يُستبدل في الحال. لم يكن العامل السوري بحاجةٍ لجريمةٍ مثل هذه لكي يُعاملَ بقسوة، فمنذُ عام عثروا على سوري مشنوقاً داخلَ محلهِ الخاص ببيعِ الأحذية في برِّ الياس بوادي البقاع شرقَ لبنان، بينما أوقفوا آخرين في الشارعِ لكي يُدققوا في بطاقاتهم الشخصية. لقد كانت السلطة غائبة. إنهم عمالٌ أقلّ قدْراً من أن يُصرَف مجهودٌ في التحقيق لصالحهم. كانَ هناكَ براعة في إلغاء الجغرافية بحدة وصلت أحياناً إلى حدِّ القتل. لم أعثر في تاريخِ الإنسانية كلها على مثلِ هذهِ الرغبة العارمة المهولة في جسدٍ أراد قطع أحد أعضائه بهذا الشكل. بدأ الخوفُ يكبر في قلبي بينما أخذت كلمة «زواج مصلحة» تتضخم في عقلي وترنّ في الفضاء حولي وتطغى على كل شيء. شيعة، سنة، موارنة، أرمن، أرثوذكس، دروز، فلسطينيون، مخيمات، سوريا، أمريكا، إسرائيل... كلمات سدّت الأفق بإحكامٍ وباتَ التطلعُ خارجَ أسوارها ضرباً من المستحيل. واليوم، هناكَ جريمة يريدون معرفة مَن وراءها. بالقطعِ لن يعثر الباحثون عن الحقيقة على فيلة وزرافات في شِباكِ صيدهم.

ودّعنا مارك، أنا وحازم، كزوجٍ وزوجةٍ مضى على ارتباطهما دهراً. لقد قرّرَ أن يبقى بدلاً من الذهاب مع صديقه. قالَ إنه لن يتركني الليلة لوحدي ليسَ لأنهُ خائفٌ من شيءٍ، ولكن «هكذا أفضل.. سأبقى ساعة وأنزل». في إحدى المرات، أخبرتُ حازم بأني قادمةٌ إلى بيروت فعثرتُ عليهِ ينتظرني في سيارته على الحدود. قالَ إنه لم يستطع أن يصبرَ ساعةً أخرى. أخذ حقائبي من سيارةِ خليل وأغلقَ بابَ سيارته علينا وانطلقنا. هي دائماً ساعة أخرى للبقاء أو الانتظار. ساعة أخرى للحب وللعمل وللحديث. ساعة أخرى للحرب

والقتال ولوقفِ إطلاقِ النار أيضاً. ساعة أخرى تُزيح هذا الكون من مكانهِ مرات وتُرجِعه. ساعة أخرى، أي ستون دقيقة، أي ثلاثة آلاف وستمئة ثانية، تدورُ الدنيا فيها على أعقابها ولا تهدأ. ساعةٌ حازم طويلةٌ تشبهُ دهراً. كان جالساً بالقربِ مني وقد أراحَ رأسه على ظهرِ الأريكة وباعدَ بين ساقيه وكأنه محاربٌ أنهى جولةَ قتالٍ للتو. أغمضَ عينيهِ وأخذَ يتحدثُ وأنا أُصغي:

«كانت بيروت شاغلة الدنيا في بدايةِ السبعينات. كنتُ لم أزل يافعاً والحربُ لم تقرع طبولها بعد، لكنّ طنينها الخافت كان مسموعاً مع ذلك ويُهيّئ لما هو قادم. كنتِ تعثرين على كل شيءٍ في بيروت؛ الحب، الكتب، الأدب، الفن والفنانين، الجمال، الأناقة والشياكة. كنتِ تعثرين على العلاقات المنفلتة من ضوابطها وعلى الأديرةِ الكثيرة المنتشرة في ربوعها، تعثرين على المارقين والثوار والكارهين لأنظمتهم والمواظبين على التنظير في مقاهي الرصيف، تعثرين على «الزعران والأوادم»، على البلطجية بربطاتِ عنق والسياسيين والباحثين عن الحقيقة. حتى صحن اللبنة والكبة النية كان يُعتبر من معالم المدينة التراثية. كانوا يأتونَ إلينا من كل مكان لكي يتناولوها مع كأسِ عَرَق مُختَمِر في المقاهي الصيفية المنتشرة بين ربوعِ الجبال. كان في بيروت كل شيء خصوصاً دَعَة العيْش وطيبه. كانت أجرةُ الراكب من بيروت إلى دمشق خمس ليراتٍ لبنانية، أو سورية إذا كانت من دمشق إلى بيروت. أما رسم الخروج من سوريا إلى لبنان فكان بـ 11 ليرة أو أكثر بقليل، بينما يصلُ سعرُ تنكة البنزين إلى 7 ليرات. كانت الدنيا بخير. حين اندلعت الحرب، انفلقت المدينة إلى نصفين. كانَ المشهدُ من غاليري سمعان عبرَ المتحف أو الشيّاح مهولاً؛ الأبنيةُ نصفُ منهارة أو ممتلئةٌ بثقوبِ رصاصِ القناصة والصواريخ التي لم نكن نعرفُ من أينَ تأتي ولا من أينَ تنطلق. كنا نحنُ أيضاً ممتلئين بالثقوب، ثقوب كثيرة مثل الغربال. اليوم، نحنُ نعيشُ فترةَ ما بعد الصدمة.

قسمٌ كبير منا ما زالَ على قيدِ الحياة بسببِ الأدويةِ المهدئة التي جعلته يفقدُ ذاكرةَ الحربِ المؤلمة، والتي كانت الحل الوحيد أمامَ وباءِ الخوفِ والاكتئاب والإحباط الذي اجتاحَ الروحَ اللبنانية. أرجوكِ يا مريم... لا تُلقي بالاً لمثلِ هذهِ الحوادث اليوم. اعتبريها «فشّة خلق، فورة دم». اعتبريها ما شئتِ ولكن لا تبعديها أبداً عن سياقها. أعطني يدكِ وانظري إليّ. لا تجعلي هذا الحب يدوخُ في محارقِ الأيام القادمة لأنّ الآتي لربما أعظم. قاومي مشاعركِ. قاومي عواطفكِ. وإذا تطلّبَ الأمر اجتازيها مثلَ سباقِ الحواجز. اقفزي فوقها ولا تُعيريها أهمية وتقدمي إلى الأمام. لا تضعيني في كفّةِ ميزان مع عواطفكِ الوطنية. نحنُ شيءٌ آخر.

نحن شيء آخر!! وقعت كلمةُ حازم كالصاعقةِ عليّ. يا ربي، كم نحنُ مختلفان. كم أتمنى أن أفهم وأتفهم دوافعه. لقد جَبَلَتْهُ الحرب وأعادت تشكيلَهُ على صورتها ومثالها. أما أنا فذاكرتي الصغيرة ليسَ فيها سوى مشهدٌ لطائرةٍ حربيةٍ إسرائيلية قصفت خزانات النفط على ساحلِ اللاذقية وفرّت عام 1971م. لم أعش حرباً أهليةً في سوريا. كان عدوّنا دائماً معروفاً وواضحاً ولم يكن هناكَ في المحيطِ الذي نشأتُ فيهِ أحدٌ يسألُ الآخر عن طائفته.

- أريدُ أن أفهمَ بكل قوتي كل حرفٍ تقوله، ليسَ بدافعِ الحب وإنما بسببِ رغبتي في الفهم.

- لا تتعبي في الفهم أو التحليل (يقولها بتوسّل) خُذي كلامي كما هو.. إنها الحقيقة.. ارتاحي من التفكير وكوني معي. هذا كل ما عليكِ فعله.. ولا تعودي إلى «هناك» ولنتزوج في أسرعِ وقتٍ ممكن. دعينا نحدد موعداً مع الخوري الذي سوفَ يحضّرُ قراننا ونحصل على ورقة «فسح الزواج». سوفَ أهتمّ بكل هذا بدءاً من يومِ غد. ابقي هنا ولا تعودي لسوريا. أرجوكِ.

تمتمتُ من دونِ تفكير: حاضر.

(17)

بـدأتُ أنتبـهُ إلـى أن تعـددَ الأحـزاب والأحـلاف والانتمـاءات في لبنـان ربما ليـسَ لأنـه الديمقراطيـة الوحيـدة فـي الشـرقِ العربـي، وإنمـا لأنّ لكلِّ زعيـمٍ فيهِ أغنيتـه الخاصـة عـن الحـب. إنهـا ليسـت تنوعـاً وطنيـاً غنيـاً وإنمـا اختلافـاً مؤلماً يتحـركُ علـى حـدِّ السـكين طـوالَ الوقـت. فتحـتَ هـذا الغطـاء الأخضـر الحنـون، وتحـتَ هـذهِ السـماءِ الزرقـاء الصافيـة، وتحتَ هذا البحـرِ البديع الفسـتقي اللون، تحتضـرُ الأسـماكُ الملونة فـي مخابئها، ويـذوبُ اللؤلؤ في قواقعهِ، وتندثـرُ الحياةُ، ويجـدُ التناقـض لنفسـهِ مرتعاً.

يعتقـدونَ أن (بوسـطة) قديمـة هي من أشـعلَ الحربَ في هـذهِ البلد. لكن قـراءةَ التاريـخ تتحـدثُ عـن تفاصيـل أكثر وجعـاً وحدّة. لـم تكن الطائفـة تنفصلُ عـن واقعهـا الطبقـي. إن الاختـلافَ كانَ بدقـةٍ صراعـاً محتدمـاً صامتـاً بيـن الغنـي والفقيـر، بيـن اليمين واليسـار، وبينَ قـوى أرادت أن تُبقي علـى الأوضاع محفوظةً فـي مِلحهـا القديـم وأخـرى أرادت أن تقلـبَ الدنيـا علـى قفاها. لكننا مـع الوقت، حيـنَ نذكـرُ حـربَ لبنـان، فإننـا نقصـدُ طائفيتـه القاتلـة. لقـد تعلمنا كيـفَ نختزل الألـمَ دائماً وأن «نشـطحَ» فـي فهمهِ.

قـالَ لـي حـازم إذا أردتِ أن تعرفـي ماذا يحدث في هذهِ البلـد، فكري دائماً

بالتـوزان السّـنّي / المارونـي ومـا تعرّض لـهُ مِن خللٍ وما طرأ على خطوطِ تماسـهِ. لـم يكـن يتخيّـلُ أن الحـربَ قد تقعُ لأسـباب أخرى غيـر هذا الخلل في تـوازنٍ بُنيَ عليـهِ الميثـاق الوطنـي للبنـان. لقـد كانَ عقلـه هـو الآخر يفكـرُ بالطريقةِ نفسـها، الطريقـة التـي أشـعلت الدنيـا وهـدّت البلـد. لكـن هنـاكَ خلـل مـن نـوعٍ آخر لم يكـن حـازم يعيـه لأنـه لم يكـن أصلاً مـن الفريق الـذي يرى فـي التضخـم المالي، فـي بدايـةِ السـبعينات مثـلاً، سـبباً في هـذه الهـوّة الاجتماعيـة الاقتصاديـة الأكثر عنفـاً وحـدّةً والتـي مهّـدت بقـوةٍ للحـربِ الطاحنة. بل لـم يكن يرى هـذا القديس الصغيـر أن هـذهِ الهـوّة، وبحسـبِ انتشـارها فـي مناطـقِ البلـدِ وتوزعها فيـه، إنما خَلقـتْ بُعـداً طائفيـاً لهـذهِ القنبلـة التـي أطاحـت بالجميع وأشـعلتِ النيـران. من يعطـي أهميـةً للصـراع الطبقـي أو للأزمـاتِ الاقتصاديـة ويعتبرها جذوةَ الاشـتعالِ الطائفـي؟ أيـنَ أنـت يـا (جـان دارك)، المـرأةُ الوحيـدةُ التـي أراها فـي حقبتي مع حـازم؟ المـرأةُ الوحيـدة التـي رسـمت قدري لهـذهِ الأيام وللأيـامِ القادمـة. لم تأتِ فـي حُلمـي وإنمـا فـي حُلـم رجـلٍ لبناني أصبـحَ خطيبي بقـدرةِ قادر، ثـم تواريتي وتركتنـا فـي أمـواجِ التيـه نتصـارعُ أنـا وهـو علـى اسـتيحاء. أشـبّهُ حياتـي بلوحـةٍ ملونـةٍ كل مـا فيهـا حـيٌّ ونابـضٌ بينمـا هنـاكَ خيـالات رماديـة بعيـدة لنسـاءٍ مـن دونِ ملامـح، نسـاء يقفـنَ مقيـداتٍ وعاجـزاتٍ غيرَ قـادراتٍ على تركِ أثـرٍ في هذهِ اللوحـة أو جعـلِ نبضهـا أقوى. لقد تعبتُ منهـن ومن تواجدهن، قصيـرات القامة، طويـلات، بدينـات، نحيـلات يرتديـنَ الثيـابَ الضيقـة أو الفضفاضة التـي تفقدهن ملامحهـن، والقبعـات المسـطحة التي تضغـطُ على عقولهن فتجعلهـن يبدون أكثرَ تواريـاً وشـحوباً، أو حتـى مفرطـات فـي الأناقـة، مزهـوات بجمالهـن المعتنـى بـه للتـو بينمـا نظراتهـن لا تتطلـعُ إلى أيِّ مـكان، هائمـة ضائعة. (جان دارك) ليسـت مثلهـن. لقـد كان شـعرها قصيـراً، ثائـرة، ولاحقـاً قديسـة، أتـت مـن الماضـي لكي تتـرك بصمتهـا علـى لوحةِ حياتي الملونة، مُسـلحةً بقوسـها وسـهامها التـي تخترقُ

الأرواحَ بسهولةٍ فائقة.

في بيروت يُمكن للمرءِ أن يحلمَ بسهولةٍ، أن يتحركَ وفقَ حلمهِ وأن يُعبّرَ عنه بكلِّ الأسلحةِ المتاحة. ما إن انتهى العهدُ الشهابي حتى أخذت تناقضات البلد تظهرُ إلى السطح. كانت المقاومة الفلسطينية قد احتلت مكانها لا بينَ مقاعدِ المتفرجين وإنما على المسرحِ بالذات. لقد كان الجو مهيئاً تماماً لكي تتحركَ باستقلالٍ تام بعيداً عن الدولةِ أو حتى بإشرافها. وخلالَ فترةٍ صغيرةٍ من الزمن تحولت إلى فردٍ مكرسٍ في العائلةِ المتشرذمة التي كانَ أفرادها ينتمونَ إلى فرقٍ متباينة، منها الرافضة ومنها المغبونة ومنها الطوائف المهملة والأحزاب ذات البعد العقائدي والعسكري المسلح، وتلكَ التي كانت لفترةٍ ممنوعة ثم ظهرت للعلن. من كان يجمعها؟ وماذا كان يجمعها؟ الثورة المسلحة؟ فكرة الدولة؟ لقد كانَ الكُل قابضاً على سلاحهِ يريدُ أن يحمي حقّ عقيدتهِ في الوجود. أما الحكم فقد اقتصرَ دورهُ على تقريبِ وجهاتِ النظر بين المسلحين وهكذا، وفي مثلِ هذا الجو المحتقن، فإن (بوسطة) قديمة صُنعت في النصفِ الثاني من القرنِ الماضي يمكن أن تشعلَ فتيلَ حربٍ طاحنة.

لقد تحدثَ حازم مراراً وفي أكثر لحظاتنا حميمية عن هذا النزوحِ القسري الطائفي بين شقّي بيروت الغربية والشرقية اللّذَين يفصلُ بينهما (خط الشام الحديدي القديم). لقد أُفرغ جبلُ لبنان والمنطقة الشرقية من المسلمين والمسيحيين ذوي الميولِ اليسارية كما أُفرغت قرى بحالها من سكانها المسيحيين. قالَ لي إن هذا لم يكن صدفة. لقد وهنت بنية البلد القومية وانحلَّ تماسكهُ الوطني وأخذت تتهيأ للحربِ بكل بساطة. لقد وقفَ مسيحيون عقائديون لا طائفيون في وجهِ مسيحيين آخرين متدينين وينتمونَ إلى أحزابٍ طائفية لا لبسَ فيها، بينما نادراً ما نعثرُ على مسلمين قد حملوا

السلاحَ في وجهِ أحزابٍ رافضة لبنانية أو فلسطينية.

كان حازم مجبولاً بذكرياتهِ وماضيهِ القريب الحي. قبلاتٌ كثيرةٌ تقاطعت مع هواجسهِ التي كانَ يتحدثُ عنها همساً. لمساتٌ كانت ترسمُ فوقَ جسدي خطوطَ التماسِ الكثيرة التي انتشرت في بيروت وحولها وفي عمقِ شوارعها وزواريبها. دموعٌ ذُرفت لا من شدةِ الحب وإنما من وطأةِ الذكرى المؤلمة التي اشتعلت في عزِّ الالتحام الرومانسي. كلامٌ كثيرٌ متشرذمٌ عن الثورة والدين والاقتتال اختلطت مع الغزلِ وعباراتِ الحب القليلةِ الموحية. سأتزوجُ الحربَ كُلها في رجل.

مرَّ أسبوع على مقتلِ الحريري وبدأت البلدُ تتحدثُ عن (انتفاضةِ الاستقلال). إنهم يريدونَ خروجاً فورياً للجيشِ السوري من لبنان. أما أنا التي أتهيأ للإقامةِ القريبةِ الدائمة فيهِ، فاللهُ وحدهُ يعلمُ بما أشعر.

حينَ فتحتُ عينيَّ في صباحِ اليوم التالي كنتُ أفكرُ بمارك اسكندر. رأيتُ التحضيرَ لأمرٍ قادمٍ في عينيه. تُرى، بما هو مكلفٌ غير الدفاعِ عن العمال والشغيلة وحقوقِ الإنسان المغبون في لبنان؟ لربما كان يملكُ قدرةً أكثر من حازم على فهمِ ما يحدث. إنهُ أكثرُ شباباً ودراسته في الخارج سمحت لهُ أن يرى كاملَ المشهد من على بعد. لا بدَّ أنهُ انتبهَ إلى أن الحربَ اشتعلت منطلقةً من حزامِ البؤس والفقرِ والتباين الطبقي المهول، حزام النازحين مِن القرى إلى المدن الذي يلفُّ بيروت من جهاتها الأربع وصولاً إلى المخيمات الفلسطينية. لابدَّ أنهُ انتبهَ إلى أن حملة السلاح لم يكونوا كلهم ممن ثاروا لانهيارِ العدالة الاجتماعية في هذا البلد وإنما أيضاً بقصدِ الابتزاز والاعتداء على الذين لا حولَ ولا قوةَ لهم. سلاحٌ كثيرٌ انتشرَ في بيروت، سلاحٌ كثيرٌ وأحقادٌ كثيرة وحسابات متشعبة وولاءاتٌ لأطرافٍ ظهرت بغرابةٍ في منتصفِ الحلبة. حتى الثوار لم يكونوا متفقينَ على صيغةٍ واحدةٍ للحل، فكانَ بينهم

العقائدي والمتدين والمعتدل. لم يكن هناكَ أحدٌ في لبنان لا لونَ لهُ أو تنظيمٍ يأويه، وإلا فإنهُ يُضيعُ مصدرَ حمايتهِ ومعيشتهِ. لقد نسيتُ أن أهدي نسخةً من روايتي إلى مارك.

اتصلَ بي عبد السلام بعدَ أن أنهيتُ مكالمةً سريعةً مع والدتي. قالَ إنهُ عندما رأى هاتفي الخلوي السوري خارجَ التغطية عرفَ أني ما زلتُ في بيروت. أخبرتهُ أنهُ لم يكن هناكَ سائقٌ سوري يرغبُ في الحضور ولا حتى خليل السائق اللاذقاني الذي أتقنَ عقدَ الصفقات على جانبي الحدود إما بالشتيمة أو بالمديح. لقد أصرَّ على أن «الوضعَ» ليسَ مزحة و»سأرسلكِ بسيارتي إن أردتِ وانسي أمرَ توقيعِ الكتاب في الوقت الحاضر... انسي كلّ شيء». لكنهُ طلبَ أن يراني قبلَ العودة لأن «هناكَ أمورٌ يجب أن نتحدثَ بها معاً قبلَ أن ترحلي».

حضرتُ إلى مكتبِ عبد السلام ظهراً وحضرتْ معي (جان دارك) كظلّي. أصبحتْ حاجتي لها من اليوم فصاعداً أمراً حيوياً. أليست هي من قررَ كلّ شيء، هذه المحاربة، المُلحدة والعذراء؟ إنها شبيهتي، فلتتحمل إذاً البقاءَ معي ولتتحمل خوفي وترددي واشتباكي وقراراتي. ستكونُ أيقونتي اللامرئية في بلدٍ تمتلئ زواياهُ بتماثيل القديسين وأنصافِ الآلهة وصورِ الزعماء والمرشحين. لماذا يملكُ السياسيّ اللّبناني هذا الميلَ لكي يلعبَ دورَ الزعيمِ في مسرحية «كلّن ع البلد»؟ لماذا تفتنهُ هذهِ الشخصية من بينِ كل الشخصيات الأخرى، شخصية رجلٍ لهُ أزلامٌ يفتحونَ لهُ أبوابَ السيارات ويهيئون دخوله إلى قاعاتِ الاجتماع والمؤتمرات الصحفية ويسلمونهُ مقصّ السيجار قبلَ توليعه ويستلمون منه النظارات الشمسية والمعطف الغالي الثمن حينَ يهمُّ بالدخولِ إلى مكانٍ ما؟ لماذا هو معجبٌ بشخصيةٍ تُدمنُ سهرَ الصالونات والحديث في السياسة والتنظير و(المزمزة) الخفيفة أو الثقيلة مع كؤوسِ الويسكي أو الكونياك المعتّق

بينما الزوجة الشديدة الأناقة التي تملحُ كلامها بالفرنسية منشغلة بالحديثِ عن رحلاتِ التسوق في أوروبا في زاويةٍ فخمةٍ من المكان مع نساء يشبهنها؟ أجزمُ أني قد رأيتُ زعيماً صغيراً يومئ برأسهِ من عباءةِ حازم. في إحدى المرات أخذني معه لزيارةِ صديقٍ قالَ إنّه «رجلٌ سياسي مهم». ما إن دخلنا إلى فيلتهِ الواقعة في منطقة (أدما) المطلة على خليجِ جونيه حتى شممتُ رائحةَ الزعماء بالقمصان الفاخرة من دونِ ربطةِ عنق والزوجات اللواتي أسرفنَ في أناقتهن لدرجةٍ يستعصي على المرء لو أرادَ أحدٌ أن يصورهن معرفة إلى أي مجتمعٍ ينتمين. بعدَ أن انتهى التعارف وكلمات الترحيب الفرنسية والصيحات الناعمة والشهقات اللطيفة تركني حازم أجلسُ مع السيدات بينما ذهبَ هو إلى ركنِ الزعماء، وهكذا بدأت السهرة. كانت تطرفُ عيني عليهِ كل وهلةٍ فأراهُ مستمتعاً بسيجارٍ رفيعٍ طويل وقد انهمكَ في حديثٍ سياسي يتقاطعُ مع نكاتٍ جنسية متوارية وضحكاتٍ مدويةٍ وسعادةٍ أسست لها البحبوحة والوعود. ليست الغربةُ عن هذا المكان ما شعرتُ بهِ ولكنهُ التّيه. في طريقِ عودتنا قالَ لي حازم إنه رآني عدةَ مرات صامتةً لا أشاركُ في الحديث، بل أكثرَ من هذا «شفتك صافنة كل الوقت... حبيبتي من يوم ورايح لازم تتعودي على هيك أجواء.. أنا شغلي كلّو هيك»، ثم قبّلَ يدي وهو يبتسم وأضافَ بمكرٍ «لسّى ما حبّيتيني مزبوط...»!

استقبلني عبد السلام أنا و(جان دارك) وأجلسنا على كرسي مقابل مكتبهِ. لقد احتضنني كأبٍ يرى ابنتهُ بعدَ سفرٍ طويل وقالَ بلهجتهِ الخاصة: «الحمد لله على السلامة»، ثم تطلعَ إلى يدي اليمنى فرأى خاتمَ حازم الباهت يلفُ إصبعي فسكت لثوانٍ، ثم أطلقَ ضحكة خفيفة فهمتُ إلى ما ترمي في الحال.

كانَ يجلسُ على الكرسي المقابل رجلٌ لم أرَهُ مرةً في حياتي ولكني سمعتُ عنهُ كثيراً وقرأتُ لهُ أكثر. أخيراً أرى هذا الذي طالما تساءلتُ وأنا أقرأ

أبحاثـهُ ومقالاتـهُ مما [illegible] يرى هذهِ الدنيـا المارقة.

كنـتُ أتخيلـهُ أطـولَ قامةً وأقـوى بنيةً ولكني ألفتـهُ معتدلَ الحجـم ذا حضورٍ طاغٍ زادت منـهُ نظـرةُ عينـهِ التي لا يهربُ منها شـيء وشـعرهُ الرمـادي الخفيف. عرّفني عليـهِ عبـد السـلام قائلاً: «دكتـور جواد حدّاد، أسـتاذ العلـوم السياسـية في جامعة ليـون فـي فرنسـا، صديقـي القديم وحبيـب قلبي»، ثـم التفـتَ إليهِ وقـال: «ابنتي مريـم.. الكاتبـة الروائيـة التـي أهديتـكَ روايتهـا منـذُ قليـل». ابتسـمَ كلٌّ منّا للآخر مـع هـزّةِ رأسٍ خفيفة.

(18)

جـواد حـدّاد، فلسـطيني مـن عـرب 48 الذيـن قدمـوا إلـى لبنـان. وُلـدَ عـام 1954م فـي مخيـم مـار اليـاس بعـدَ تأسيسـهِ بعاميـن، وهـو أصغرُ مخيـمٍ للاجئين الفلسـطينيين لجـأ إليـه مـن نزحـوا مـن الجليـل في شـمالِ فلسـطين. غـادرَ جواد لبنـان إلـى فرنسـا للدراسـةِ بعـد انتهاءِ حـرب السـنتين (75-76) وبقـي هناك إلى هـذا اليـوم. لمـعَ اسـمه كمفكـرٍ بعيـدٍ عـن الوطـن لكنـه بقـي متشـرّباً بسـنواتِ اللجـوء وهمـومِ الأرض ومفتـاحِ البيـتِ الطويـل الـذي يرقـدُ فـي جيبهِ. لقـد خاضَ حروبـاً كثيـرة فـي الغربـة شـنّتها عليـهِ مجموعـات صهيونيـة أرادت أن تبعده عن منصبـهِ الأكاديمـي لكنهـا فشـلت أمـامَ إقدامـهِ ولمعانـهِ وتفوقـهِ، فتمسـكت بـهِ جامعتـهُ بالرغـم مـن كلِّ شـيء. نجـا جـواد منذ سـنوات مـن محاولة اغتيـال بينما كانَ يركـنُ سـيارته الصغيـرة أمـامَ منزلـه في إحـدى ضواحي ليون خلّفتـه من دونِ سـاق. اليـوم، هـو يكتـبُ مقالاتـه وأبحاثـه وينشـرها فـي بعـضِ الصحـف العربية التقدميـة ويُدعـى للمؤتمـرات القوميـة وتلـكَ التـي تناهـض التطبيـع مـع الكيـان الصهيونـي. إنـهُ الرجـلُ الـذي لا يمكـن أن تأتـي (جـان دارك) فـي أحلامـهِ لأنـه لا يؤمـن بتوجيهاتهـا أصـلاً، ولـم تعلمـه الحيـاة فـي المخيم أن عليـهِ أن يتـركَ تقريرَ مصيـرهِ للقديسـين بينمـا يـده كانـت تقبـضُ علـى سـلاحِ الحراسـة الليلية.

لم يستطع عبد السلام أن يمسكَ نفسه من سؤالي أمامَ جواد:

- «لسّى الخاتم بإصبعك؟»

- «لسّى».

- «ما حلّك تقلعيه؟!.. لتكوني عن جد بتحبّيه؟»

أجبتُ بعدمِ قناعةٍ واضحة بينما عيني جواد تنتظرُ جوابي بتوقٍ أمكنني الإحساسُ بهِ بسهولة:

- ارتبطتُ بهِ لأني أحببته.. ما يحدثُ لاحقاً يتوقفُ على مواقفهِ من أشياء أنتَ تعرفها.

يلتفتُ إلى جواد ويقول:

- لا أشعرُ يا مريم بأي حرجٍ من الحديث أمامَ جواد لأنه «منّا وفينا». حازم ليسَ لكِ. فكّري أكثر. أنا لا أكنُّ لهُ ضغينة. انسي الخلافَ المبدئي الذي بيننا. هذا رجلٌ يميلُ لزعماء تعاملوا مع أعداءِ هذه البلد. مجرد أن يفعلَ ذلك هذا يعني أن هناك خللاً ما في الفهم والوعي لديه. ربما هو متيّمٌ بك. ربما جارت الحربُ على روحهِ فأزهقتها. من يدري؟ لكنكِ لستِ هي قطعاً من يجب أن تشاركه حياته.

كانَ جواد يُصغي بحياءٍ وكأنه زُجَّ بهِ في صلبِ موضوعٍ شخصي لم يسمع بهِ إلا للتو. مع ذلك، لم يمنعه حياؤه من الإصغاء المنتبه المهتم. لقد فنّدَ عبد السلام الحجة تلو الأخرى مستعملاً كلتا يديه من أجلِ الإقناع بينما كان يُحرك سيجاره بين أصابعهِ بشيء من نفاذِ الصبر. كنتُ أفهمُ تماماً كُل كلمةٍ يقولها.

لقد كانت الدنيا بخير عندما التقيتُ حازم وكانت شكلياتُ الأمورِ جيدة وواعدة ولقد سمحَ لي بعضُ النضج أن أقدّرَ أن الحبَّ ينمو مثلَ الوليد الصغير

ويكبرُ إذا كانَ هناكَ من يرعاه جيداً. لقد بدونا، أنا وهو، كوالدين جيدين لهُ وكانت عرّابته القديسة جان دارك. من يملكُ بعدَ هذا أن يديرَ رأسه باتجاه أي أفقٍ آخر؟

تبادلنا أنا وجواد أرقامَ الهواتف مع كلماتٍ مجاملة خجولة ونظراتٍ هاربة. قالَ إنه سيبقى حتى آخر الشهر في بيروت ومن ثم يعودُ إلى جامعته. وعدني أن يقرأ الرواية بكلّ اهتمام. حين قامَ ليودعنا أنا وعبد السلام شدَّ على يدي بكلّ قوتهِ فشعرتُ بإيقاعِ روحهِ الراسخة وثقته بنفسهِ. وهكذا فَضحت قبضةُ سلامهِ المستور، وجعلت الجو كله يتسمّمُ بهذا الشيء الذي لا يمكن وصفه ولن أعرفَ كنهه أبداً.

تركتُ مكتبَ عبد السلام بعد أن أخذ وعداً قاطعاً مني بالعودة في أقربِ وقتٍ إلى اللاذقية. لقد أصبحَ الأمر أكثرَ صعوبة ليسَ فقط بسبب عدم وجود سائقين مستعدين للمخاطرة بحياتهم وسياراتهم وإنما لأنّ جواد في بيروت، ولأنّ حازم يُحضّر ورقة تفسيح زواجنا مع الكاهن المسؤول في منطقته.

عُدت إلى البيت بسيارة (سرفيس) قديمة. كانت هناكَ أيقونة متدلية أمامَ السائق العجوز تشبه تلكَ التي يضعها حازم على صدرهِ. أيقوناتٌ كثيرةٌ في هذهِ البلد، صلبان، شعارات مكتوبة بالأسود المطبوع على الجدران في الشوارع، علامات تجارية، ماركات، تماثيل وصور في كل مكان، كلها تمرّ أمامَ ناظري من وراءِ زجاج السيارة التي تتحرك كبوسطات منتصف القرن الماضي على الطرقِ الصوانية الجبلية. كنتُ أهتزّ يميناً وشمالاً بشكلٍ خفيف وأميلُ مع حركةِ السيارة وأنا أفكرُ شاردة بجواد بينما كانت صورة حازم تبهتُ وتنوصُ وتتلاشى ثم تقوى لتعود فتبهت مثلَ أضواءِ شجرة الميلاد التي لا تستقرُ على حال. تُرى ما هو الحب؟ من أي قماشٍ مصنوع؟ أمِنَ الكتّان؟ أمِنَ الحرير الشفاف أم مِنَ المخمل الفخم الرزين؟ ما هي قماشة حبي لحازم؟ أينَ عثرتُ

عليها؟ وهل تكفي ثوباً لي ولهُ طولَ العمر؟ ولمَ عليَّ أن أعتمدَ على دعواتِ القديسين لكي تستمر حياتي من دونِ منغّصات؟ لطالما كنتُ أحيا كمغاويرِ الجبال متيقظة الروح والعقل، فاتحةً بوابات وجداني على كلِّ الدنيا. ماذا حصلَ لكي أغلقهما عليَّ أنا وحازم وأصنع لنا قبراً احتفالياً في منطقةِ غزير الجميلة المطلة على البحر؟

وبدأتُ أدوّرُ الخاتم في إصبعي بينما كلماتُ عبد السلام تصرعُ أذناي. ما العمل الآن؟ حاولتُ أن أُبعدَ كل هذه الأفكار المزدحمة عني فلم أُفلح إلى أن أيقظتني مكالمةُ حازم:

- «وينك؟»

- في طريقِ عودتي إلى البيت.. كنتُ في مكتبِ عبد السلام.

- لن نستطيعَ أن نلتقي هذا المساء يا حبيبتي.. لدي اجتماعات حتى منتصفِ الليل. أنتِ تفهمين حساسيةَ هذهِ المرحلة. «نامي بكّير». لا تذهبي إلى أي مكان. سأتصلُ بكِ في الصباح.

- وورقة تفسيح الزواج؟.. حازم... ألو حازم... ألو... حازم. قضيتُ فترةَ المساء صامتة أُقلّبُ الدنيا حولي بقلقٍ مستطير. راحَ عقلي إلى اللاذقية عدةَ مرات وعاد مثقلاً بحمولةٍ عاطفيةٍ كبيرة. المناخُ يشبهُ كرةَ ماءٍ مطاطيةٍ يتزايدُ وزنها فوقَ كاهلي شيئاً فشيئاً. بيروت تنتفضُ تريدُ استقلالها وأنا أنتفضُ مثلها وأكثر. هي مذبوحةٌ بالاغتصابات التاريخية المتتالية وغزوات الحب المفتون، وأنا مذبوحةٌ بـ «غلطةِ الشاطر» التي تساوي ألفاً. نمتُ على هواجسي وصحيتُ على تلفونِ جواد. خرجَ صوتي جديداً وأنا ما زلتُ في سريرِ النومِ الدافئ. بعدَ السلام السريع، دخلَ في صلبِ الموضوع في الحال وقالَ إنه سهرَ على روايتي وأنهاها فقط منذُ دقائقَ قليلة:

- انتظرتُ حتى طلعَ الصباح لأتصلَ بكِ.

- عن جدّ؟ بهذه السرعة؟... ألف شكر حقاً!!

- طبعاً. الرواية تستحقُ القراءة. من أولِ سطر عرفتُ إنكِ مختلفة. مجرد أن فكّرتِ بموضوعِ العمالِ السوريين ولم تفكري في مواضيعَ تتعلقُ بجسدكِ أو الجنس أو علاقتكِ بالرجل، عرفتُ أن بوصلتكِ تتحركُ باتجاهها الصحيح. اليوم تمتلئ رفوفنا بهذا النوع من الأدب.. مشاكلُ البلد أصبحت من اختصاصِ أهلِ السياسة وليسَ المثقفين أو الأدباء. لقد دخلنا عصرَ الترويجِ للجنس والتطبيع الثقافي مع من يحملون السكاكين خلفَ ظهورهم والابتسامات الصفراء على وجوههم. سئمتُ من الكاتبات الغارقات في مشاكلهن مع الرجل أو صراعهن مع الحرية.

تركتُ جواد يتحدثُ بلا توقف لمدةِ نصف ساعة من دونِ أن أنبسَ بحرف. كنتُ أصغي إلى أهمِ سمفونية سمعتها في حياتي وأنا مغمضة العينين، منتشية المرة تلو الأخرى إلى أن سألَ فجأة:

- «أنتِ معي؟ نمتي؟»

- لا.. لا.. أنا أُصغي بكلِّ اهتمام.

- ما رأيكِ لو نكمل حديثنا على فنجانِ قهوة. هل لديكَ مانع؟

أجبت بتردد:

- لا، أكيد لا...

اتصلتُ بحازم لكن هاتفه الخلوي كانَ مغلقاً. بعثتُ لهُ برسالةٍ مقتضبةٍ أخبره عن لقائي المرتقب مع جواد. قلتُ في نفسي سيجدها عندما يفتحُ خطه وانتظرتُ كل فترة قبل الظهر وأنا خائفة. لم يتصل ولم يرد. في الرابعة بعدَ الظهر اتصلَ وقالَ إنهُ رأى رسالتي، «لا بأس حبيبتي.. مواعيد عملكِ ليسَ لي فيها... أنا أيضاً سأكونُ مشغولاً للباقي من النهار.. سأتصلُ بكِ ليلاً..». «أوف!» تنفست الصعداء.

التقيتُ أنا وجواد في واحدةٍ من مقاهي الرصيف في شارعِ الحمراء. كانَ ينتظرني بشيءٍ من القلق والانشراحِ معاً. شدَّ على يدي مرةً ثانية بقبضتهِ القوية وجلسَ بحماسٍ وقالَ وهو يبتسم:

- «أهلين مريم... الكلام هون أحسن.. ع التلفون ما منقدر نشوف انفعالات وجه الطرف التاني».

مرة ثانية تركتُ جواد لكي يتحدث كما يريد وأنا أصغي إلى إيقاعِ الصوتِ العميق مثلَ بحرٍ ممتلئ بأسماكِ الزينة. لم يدر الحديث عن روايتي وإنما أخذَ فجأةً ومن دونِ مقدمات منحى آخر. لقد أرادَ أن يتحدثَ عن نفسه:

«سأحكي لكِ قصتي يا مريم. أنا ابنُ المنظمات الفلسطينية في لبنان. ولدتُ في مخيمٍ وكبرتُ فيه ومنهُ سافرتُ مباشرةً للدراسةِ في فرنسا. لم يكن لدي إلا الوثيقة لكنّ صديقاً أمكنَ لهُ أن يستخرجَ لي جوازَ سفرٍ لبناني وهكذا سافرت. لقد كانت مخيماتنا تتحدى أسلوبَ الحياة في لبنان، لبنان البرجوازي الذي كانَ يتطلعُ إلينا كمن باعَ وطنه وأتى متطفلاً مخرّباً إليه. حينَ تركتُ البلد كانت حربُ السنتين قد انتهت بينما وجدتْ إسرائيل طريقةً لكي تمدَّ ذراعها طويلاً في عمقِ البلد. قالت إننا نهدّدُ أمنها وإننا سنجرُّ لبنان إلى حربٍ معها إذا لم يقم أحدٌ ما بإخمادِ أصواتنا. ماتَ والدي في المخيم وأنا أدرسُ بعيداً عنهم. صَكّ البيتِ في الجليل ما زالَ ممهوراً بدمهم والمفتاح.. آهٍ من هذا المفتاح ما زالَ في علبةِ أمي الصغيرة التي تجمعُ فيها أشياءها. لقد كانت النظرةُ اللبنانية إلينا أكثرَ من قدرتي على الاحتمال فهججت. كنتُ أسمعُ الشماتة وكلمات الذّل تسقطُ على روحي مثلَ الرصاص، «باعوا وطنهم»، «مُخربين»، «سيخربون بلدنا مثل ما خربوا بلدهم»، «قتلةُ الملك عبد الله»، وكلمات أخرى لا تزال محفورةً في هذا العقل. ماذا يعلمُ هؤلاء عن الخطرِ الصهيوني؟ ماذا يعلمون عن دربِ آلامنا؟ كل يومٍ كنتُ عندما أغمضُ عيني في

ظلامِ الخيمـة وأرجـعُ عبـرَ ال [illegible] فلسـطين، أسـافرُ إلـى هناك حيـثُ تسـكنُ روحـي التـي لـم ترهـا مـرةً واحـدة. أتذكـرُ أني فـي بلـدٍ يهينني ثم يطلـبُ منـي كلّ طالـع شـمسٍ أن أتذكـرَ «جميلـهُ» علـيَّ تمامـاً، كمـا يفعلـون مع العمـالِ السـوريين الذيـن كتبتِ عنهم. كنتُ أسـمعُ كلمةَ لاجئ كل يـومٍ في أذني. مـن قـالَ إنـي اختـرتُ أن أكونَ لاجئاً. من قـالَ إن بيّاراتنا كذبة وإننـا حرثناها فقط فـي خيالنـا؟ لقـد مـاتَ الآلآفُ قربَ السـياج من رصاصِ حـرسِ الحدود الإسـرائيلي وهـم يحاولـونَ أن يتنسّـموا هـواءَ فلسـطين أو الاقتـراب مـن أرضها. حتـى لهجتي الفلسـطينية الجميلـة أحـاولُ أن أخفيهـا وأنـا فـي هـذا البلـد. مـرّت سـنواتٌ مـن الجنـون الفالـت مـن عقالـهِ؛ أحـزابٌ ومنظمـاتٌ وجهاتٌ وأفـرادٌ وحكومـاتٌ كانت تربّـتُ علـى أكتافنـا وتعدنـا بالتحريـر كلّ طالـعِ شـمسٍ. فـي كلّ مـرةٍ كنـا ننتظـرُ الفـرج، ثـم ننـامُ آخـرَ الليـل علـى خيباتنـا. كنـا نحـاربُ بالمذيـاع، ربمـا كانَ هـذا أمضـى سـلاحٍ بيـن أيدينـا. الأنظمـةُ العربيـة كانَ كل منهـا فـي واد؛ أسـلحة كثيرة، بعثيـون، ناصريـون، قوميـون، كل واحـد منهـم كان يوقظنـا كل صبـاحٍ علـى خطبهِ لننـامَ فـي المسـاء مرةً أخرى علـى الخيبات والأحـلام الموردة. بعد حـرب 1967م، والهزيمـةِ المهولـة، بلـعَ العربُ ألسـنتهم إلى الأبد واسـتراحوا وأراحونـا. لقد أطلقَ علينـا العـدو اسـمَ مُخربيـن، اليـوم نحـنُ إرهابيـون، أمـا بالنسـبةِ إلـى اللبنانييـن فنحـنُ غُربـاء ولاجئـون. حتى المكتب الثاني اسـتدخلوه إلـى المخيمات وأصبحت فروعـه مـن المخافـر مـلء المـكان. كانَ الهـمّ هـو مراضـاةُ إسـرائيل، فلبنـان ليسَ دولـةَ مواجهـة وهـذا يعني أن تنصبَ لنا الشـركَ ليلَ نهار ونُقمَع في أسـرّتنا ونحنُ نيـام. دخـلَ حتـى الكومنـدوس الإسـرائيلي إلى لبنـان بمباركةِ اليمينييـن فيه وقتل منـا بؤبـؤ العين، قتـل رموزنا وأبطالنا، فُجّرت رؤوسـهم المهمومـة بمفاتيحِ البيوت والحنيـن. كانـت المخميـات تمتلـئ بالبنـادق، حتـى أكيـاس الطحيـن والأرز فـي مخـازن الأونـروا كانـت محشـوةً بالقنابـل والرصـاص. كنـا مجموعـة من اليائسـين

والعشاق والحالمين، وهكذا تشرذمنا إذ لم نكن جميعاً قلباً واحداً. لقد فتحَ البعضُ دكاكينَ سمسرة، بينما فتحَ آخرون قلوبهم حتى آخر قطرةِ دم. أنا لا أمسحُ على رأسِ كل فلسطيني وأقولُ له مغفورة لكَ خطاياك. لقد كنتُ أرى الجميعَ وأعرفُ من كان يريدُ تحرير فلسطين حقاً من ذاكَ الذي أصبحَ بارعاً في لفِّ خصرِ الأنظمة العربية والرقصِ حتى الصباح. كنتُ أبحثُ عن رجلٍ لا يكون نسخةً عن ياسر عرفات. لم أعد أميلُ للرجل، قتلوه أم لم يقتلوه، القضية أنهم يقتلون كلّ فلسطين. فلسطين أكبرُ منه ومن قضيته. أردتُ زعيماً لا يفتحُ دكاناً أو يتأمّل نجوميته مبهوراً بينما نحنُ نُداسُ تحتَ أحذيةِ الدول الصديقة وتلكَ التي (حمّلتنا جميلة) الإقامة لديها.

علّمتني الحربُ أن لا أثقَ بطائفة. كرهتُ من حوّلَ القدسَ إلى مجردِ جامع. لقد أسلموا الصراع وصبغوا بالدين كلَّ حركة مقاومة. لم يكتفوا بهذا وإنما اتهموني بأني أريدُ أن أوطّنَ نفسي. أنا!! أنا يا الله.. أنا!! أنا أبيعُ أَرز الدنيا كلها مقابل ذرّةِ ترابٍ من أرضِ فلسطين، مقابلَ بذرةٍ في برتقالةٍ صغيرة تنبتُ في يافا. تراهم لا يعرفون عن أيةِ بلدٍ يتكلمون. حتى عرفات لم يقبل بالتوطين. كانَ الأمرُ سهلاً لو أردنا. المخيمات ليست فنادق خمس نجوم. إنها ليست حتى بيتاً طبيعياً. إنها مكانُ انتظار طويل لا يريدُ أن ينتهي. لا أحدَ يتحدثُ عن الحقوقِ المدنية للمنتظرين، الواقفين على بابِ الشوقِ والدالفين إلى رحاب الانكسار خطوة خطوة.. لا أحدَ يتحدثُ عن حقوقِ المنتظرِ الواقفِ الذي ما زالَ يضعُ إصبعه على الجرس منذُ أكثرَ من خمسين عاماً. أنا لستُ لاجئاً. صحيحٌ أنني لا أملكُ اليومَ بارودة الحراسة الروسية الصغيرة ولكني أملكُ سلاحاً آخر أبقيه صاحياً ليلاً نهاراً في المخيمات وخارجها وحولها وفي جامعتي في ليون وفي بيتي. أنا وراءَ متراسي، ولستُ مشغولاً أبداً بالتصفيق في المهرجانات ولم أنشغل قبلاً. سأكملُ هذا الطريق يا مريم لأن ليسَ هناكَ

آخـرَ غيـره، وسـاقي المقطوعـة شـاهدةٌ أبديةٌ علـى ذلك».

(19)

عـدتُ إلـى جونيـه فـي (سـرفيس) آخـر. كانَ القـرآنُ الكريـمُ متدليـاً هـذهِ المـرة مـن المـرآةِ الأماميـة للسـيارة بينمـا كلمـات جـواد تـرنُّ فـي أذنـي بشـكلها المتواتـر المتقطـع مرةً أخرى، وكأني أسـتعيدُ شـريطَ (كاسـيت) قديـم. لقد هالَني كـمُّ الألـم فـي كلامـهِ وربمـا كـمُّ التحامـل. أنا أعـرفُ هـذهِ البلـد مثلَ باطـنِ كفي ومصابـةٌ بمـرضِ عشـقها هـذهِ المغنـاج اللّعوب الآسـرة حتـى في خطاياهـا. جواد لـم يسـتطع أن يغفر. بقـي منقوعاً بالهواجـس والصفعات وكلمـاتِ الإهانة والفقرِ القديـم. لـم يغيـر اللقـبُ الأكاديمـي مـن الوجـع، ولا البحبوحـة الماليـة، ولا حتى حريـة التنقـل والاسـتقلالية. لقـد أحببـتُ هـذا الرجل مـن كلِّ قلبي. أحببـتُ ألمه وتعاطفـتُ معـه وشـعرتُ بالأسـفِ العميـق والخجـل. كأنَّ بلـده قمعته وسـحقت آمالـه. قلبـه الباكـي العاتـب علـى الوطـن لـم يقـوَ علـى المسـامحة. إن أقسـى الطعنـات تلـكَ التـي تأتـي مـن الحبيـب، من يـده التـي كانـت حنونةً فيمـا مضى وقَسَـت. الذاكـرة العاشـقة لا تسـامح، لا تغفر، تبقـى متألمةً لآخرِ العمـر. إنها غيرُ قـادرة علـى الفهـم واختـراقِ دوافـعِ الحبيب الـذي تحولَ فجـأةً إلى قاطـعِ رؤوسٍ وجـلادٍ بـدمٍ بـارد. الذكريـات الجميلـة تجعـلُ الغفـران صعبـاً بـل مسـتحيلاً. إنهـا لا تليّـنُ القلـبَ الـذي طالمـا اسـتكانَ علـى كتـفِ الحبيـب – الوطـن بصفـاءِ عقلِ

طفلٍ يتهيأ للنوم. الذكريات الجميلة تجعلُ الألمَ أكبرَ وأكثرَ حدّة. ربما تُغيّبُ الأيامُ الطويلةُ والأهدافُ المستجدةُ شيئاً منه ولكنها لا تمحيه أبداً. وجواد عاتبٌ على البلد الحبيب الذي تحولَ إلى يدٍ مستعدةٍ للبطش عندَ أولِ مناسبةٍ وعيونٍ زجاجيةٍ ميتة.

هدَّ جواد بابَ قلبي بوجدانه. لقد حسمَ فهمه للأمور الموقفَ كلّه. لم يشارك في الحربِ الأهلية اللبنانية لأنه كانَ على قناعةٍ أن الطريقَ إلى الوطنِ لا يمرُّ من أي مكانٍ آخر. كل كلمةٍ تفوهَ بها كانت تجدُ مكانها في روحي بسلاسةٍ منقطعةِ النظير. كل حرفٍ تلفظَ بهِ كنتُ أفهمه وكلّ إيماءةٍ كنتُ أعرفُ مصدرها. لماذا لا يقفُ القديسون إلى جانبِ الوطنيين المتألمين؟ لماذا يومئونَ برؤوسهم في الحروب ليقفوا مع هذا الفريق أو ذاك؟ إنهم غربانُ الحروب وليسوا شفعاءَ لها. سُمنتهم فضحت نواياهم. إنهم يقتاتون على جثثِ رجالِ ونساءِ الفريق الآخر ويقيمونَ الصلاة لنصرةِ فريقهم. إنهم ليسوا وطنيين، إذْ شَتّانَ بينَ القداسةِ والوطنية. القداسةُ طائفةٌ أما الوطنية فهي الأرضُ والأمة التي فوقها كلها. حازم هو القداسة وجواد هو الوطنية. حازم هو جان دارك وجواد هو الأرض. حازم هو الكلاشنكوف المستتر في رأسِ القلم وجواد هو كتابُ التربية الوطنية. حازم هو الشمعُ المشتعل أمامَ الأيقونة وجواد هو الأيقونة نفسها. أيقونة جواد صمتها مطبقٌ وثلاثيةُ الأبعاد لكنها لا تمثلُ هذا العالم الواعي المارق وإنما تريدُ أن توحي بالجمال العابث للتحرير والعودة للبيت. في أيقونة جواد تُمثّل الحقيقة الوجدانية بالرمز. الرمز الذي يختفي فيهِ كل ما هو شخصي لتتألقَ مساحةُ الوطنِ الكاملة. أيقونته فريدةٌ من نوعها كحالِ كل الأيقونات، تشهدُ على آلامِ عصرهِ وأوجاعهِ وأحلامهِ لا من خلالِ شخصيتهِ التاريخية، وإنما مما هو داخل شخصهِ الموضوع تحتَ الضوء. جواد ليسَ لوحة وإنما هو حرف. إنهُ ليسَ تحفةً معدةً للعرض في المتاحف وليسَ

كذلك للزينة فيعلق على الجدران وإنما هو صورةُ المرحلةِ التي امتلأت في كأسِ مشاعر هذا الرجل الحقيقية.

ختمتُ نشيدَ أيقونة حازم عندما وقفت سيارةُ التكسي أمامَ المبنى. لم أجد عبد الرحمن جالساً على كرسي المدخل كعادتهِ. كأنه نفّذَ ما وعدَ به. كأنه رحلَ تاركاً ثلاثين عاماً من الخدمةِ وراءَ ظهرِهِ بلا أسف. اقتربتُ من زجاجِ الغرفة الموصدةِ الباب بالقربِ من المصعد وألصقتُ جبهتي بهِ وتطلعتُ إلى الداخل. لم يأخذ عبد الرحمن أيَّ شيءٍ معه. لقد تركَ الغرفة بكلِ ما فيها؛ السرير المعدني العتيق واللحاف الكاكي؛ تَرِكة قواتِ الردعِ القديمة والتلفزيون الصغير بالأسود والأبيض وكرسي قديم وبعض الأغراض الأخرى هنا وهناك. لقد «نَفَد بريشِهِ» ورحل. أشعرني رحيلُ عبد الرحمن باليتم في بيروت، زادَ من حدّتهِ الرسالة التي تركها لي على عتبةِ بابِ بيتي في الطابقِ السادس. لقد كتبها على عجلٍ بلغتهِ العامية المفككة ومشاعرهِ المرتجلة العفوية وخيطِ الألم الرفيع فيها، «عزيزتي الست مريم.. أنا مسافر بعد ساعة. ما تزعلي مني لأن ما خبرتك.. بس والله ما قدرت ضل أكتر من هيك. بعزّ عليّ كان أترك بهالسرعة وبهالطريقة بس كان فيه صديق سوري إلي مسافر قلت بروح معو.. دبّرنا سيارة ورحنا. أنا حبيت هالبلد كتير يا ست مريم بس هيه ما حبّتني.. الله بيعين.. انتبهي على حالك. أنا راجع ع الرقة. إذا كان إلنا نصيب منلتقي وإذا لأ منضل تحت أمر رب العالمين.... عبد الرحمن».

قصاصةٌ أخرى تدفعُ بقطارِ الزمنِ والمكان باتجاهِ سكةٍ ما. قصاصاتٌ كثيرةٌ هنا وهناك غيرت اتجاهَ حياتي. قصاصاتٌ كان يكتبها والدي ويدسها بين كتبي عليها عبارات لـ (ماو تسي تونغ وعلي بن أبي طالب والنّفري وأنطون سعادة). قصاصاتٌ من عشاق خفيّين لم أرَهم مرةً في حياتي، وأخرى من زملاء في العمل، ولاحقاً من معجبين بما أكتب. قصاصات من جرائد أو كتب

قديمة أو حتى أخرى كنتُ أعثرُ عليها في الحلوى الصينية. قصاصات غيّرت اتجاهَ طريقي عدةَ مرات من دون أن أشعر وجعلت الحياة تأخذُ مجراها الذي لا يخطرُ على بال. قصاصات أنا كتبتها وأعطيتها لآخرين دوّنتُ عليها أفكار وجملاً وكلمات كانت تأتيني في هدأة الصباحِ الباكر أو في لحظاتِ الروح المكثّفة. كنتُ أُغيرُ وأتغيرُ ضمنَ حركةٍ لا تهدأ ولا تعرف كيفَ تهدأ. رجالٌ يدخلونَ إلى حياتي ويبقون، وآخرون أبقى صديقةً لهم وآخرون لم يعرفوا كيفَ يكونوا أصدقاء من دونِ طغيانِ الحب، بينما لم تعرف امرأة أن تتركَ بصمةً صغيرةً على روحي.

عليَّ اليومَ أن أترجلَ عن صهوةِ جوادِ الشوقِ لبيروت كفارسةٍ قديمة. عليَّ أن أخلعَ درعَ الحب الحامي وألقي بأسلحتي الخفيفة على الأرض؛ قوس اللهفة ونشّاب الشغف وأكمل الطريقَ سيراً إلى اللاذقية. عليَّ أن أنكّسَ الأعلام فوقَ مبنى أحلامي وألقي حريراً أسود فوقَ تحفِ وتماثيلِ طموحاتي الصغيرة فيها حداداً. لم يبقَ إلا شهقة صغيرة أخيرة لا أعرفُ متى ستخرج.

الليلُ طويلٌ وبيروت تتحضّر للآتي بينما حازم في مكتبهِ منكبٌّ على التّيه. أرسلَ إيميلاً يقولُ إنه لن يأتي الليلةَ وطلبَ أن أكونَ جاهزةً غداً لمقابلةِ الكاهن الذي سيشرفُ على تحضيرنا للزواج.

ما زلتُ أعتقدُ بقوةٍ أن الزواجَ أفضلُ صيغة للعلاقةِ الجنسية ولكني أفضله مدنياً لا دينياً. أريدهُ أن يتم بمباركةِ قوانين المجتمع المدنية وبحمايتها وأن يذيبَ الخيوط الكثيرة في نسيجِ الطائفية الأخرق. فإذا كانَ شعوري وقناعتي أنني أنتمي لأرضي وأُكنّى بها ولها أعمل، إذاً لمَ عليَّ أخذ مباركةِ رجلِ دين هَوَستْهُ علاقته مع الله والطقوس؟

يزدادُ وزنُ الخاتم الذي دسّه حازم في إصبعي كلما اقترب موعدُ الزواج. يزدادُ وزنه وكأنه كتلةٌ من حجرِ الصوان هائلة الحجم. كنتُ أعلمُ ما ينتظرني

وكنتُ أقبلهُ بلا جدلٍ بدافع الحب. قلتُ لنفسي أنّ الأيام ستجعلُ انسجامنا الفكري أكثر اتساقاً وسيتغلبُ الواقع على تضاريسِ الروح المتباينة بيننا. لن أختلفَ مع الأيقونات ولا مع الشموعِ المشتعلة ولا مع أغاني الحب الفرنسية القديمة ولا حتى مع ذكرياتِ الحرب أو هباتِ البكاء الفجائية. قلتُ سأطوّعُ فولاذَ اختلافهِ عني بنارِ الحب. قلتُ أشياء كثيرة تحتَ وطأةِ إحساسٍ لا أعرفُ مصدره. لكن موتَ الرجلِ أيقظَ الدنيا في داخلي مرةً واحدةً وإلى الأبد، ولم أعد مخدرةً بالأحلامِ الناعمة وصوت محركاتِ المراكب الصغيرة المبتعدة والمتزحلقةِ على صفحةِ الماء في خليج جونيه.

(20)

نمتُ تلكَ الليلة على هواجسي لأصحى على هواجسِ الشارع المنكوب. لقد تمَّ تداول نعوةِ وزيرةِ خارجية أمريكا للحريري عبرَ كلّ وسائلِ الإعلام المتاحة. لم يكن صعباً عليّ أن أقرأ في نعوتها سياسةَ الأيامِ القادمة. لقد صبّت فيها مباشرةً ومن دونِ مواربة كل ما تريده أمريكا من لبنان؛ (خروج الجيوش المحتلة وحل المليشيات وسلطة الدولة الكاملة على كل الأراضي)، كما أكثرت من الحديثِ عن السيادةِ والاستقلال والحرية؛ أدوات التخويف الأبدية. لبنان ليسَ بلدَ «مات الملك عاش الملك». إنه ليسَ بلدَ النظامِ الواحد ولا وجهة النظر الواحدة أو الموقف الواحد. إنه متعدد، متشظٍّ ومتنوع، ولكن في تنوعهِ وتعددهِ لم أعثر على ديمقراطية حازم وإنما على طوائفهِ. في سوريا، نخافُ من الحديقةِ اللبنانية ونرى فيها أبواباً قد تفتحُ على المجهول واحتمالاً قوياً بالزعزعة. وبقدرِ ما تفوحُ منها رائحةُ أزهارِ المقاومة الذكية، بقدرِ ما تنبعثُ من بعضِ زواياها رائحةُ الأوراقِ المتعفنة وروث الزائرين الكُثُر والضيوف الذين استُحضِروا على عجلٍ لزومَ دعمِ سياجها ورفدِ أرضها بالمخصبات. الخوف من الأخِ هو أغربُ وأبشعُ أنواعِ الخوفِ قاطبةً. هل نحن مرضى بالخوف؟ لطالما رأيتُ مظاهرَ الحب المتبادل بينَ الأخوة لكنّ الخوف

بقي صامتاً ومتحفزاً. خوف العين من النظر، خوف اللسان من الكلام، خوف الأذن من السمع وخوف الجسد من الحيز. إنه الخوف المجبول بالترقب والإحساس الدفين بالظلم. إنه الخوف الذي يقتلُ حِس الفكاهة والعواطف الصغيرة الجميلة التي تطفو على سطحِ القلب. ماذا يبقى للأخوة حينَ يُوءَدُ الحب في مهدهِ أو يكون من طرفٍ واحد؟ ماذا يبقى للحلم وماذا يبقى للواقع؟ ماذا يبقى؟

حضرَ حازم في صباحِ اليومِ التالي وعلامات السهر الطويل باديةٌ حولَ عينيهِ المتعبتين. وقفَ على الباب وسألني إن كنتُ جاهزة. بدا متوتراً ومستعجلاً. قالَ إن الكاهن ينتظرنا في مكتبهِ وإنه في الطريق إلى هناك سوف يشرحُ لي كل شيء. لاحَ في كاملِ أناقتهِ؛ ربطة عنق مناسبة وحذاء نظيف وبدلة رسمية كحلية اللون لا تتركُ مجالاً للشك بجديته. أما أنا فكنتُ ألبسُ سروالَ الجينز وبلوزة قطنية بسيطة وقبعة رياضية. تطلعَ إليّ حازم مدهوشاً من دونِ تعليقٍ وقال:

- طيب طيب... بسرعة لا نريدُ أن نتأخر.

أغلقتُ بابَ عزلتي واستقلينا المصعد.

- مريم... «اسمعيني منيح حبيبتي. ربما هذه الطريقة في التحضيرِ للزواج ليست مألوفة لدى طائفتك ولكنها أمرٌ ملزمٌ في طائفتي. سيلتقي الكاهن مع كلينا معاً، ومع كل منا على انفراد. لا يكتملُ الزواج إلا بالحصولِ على ورقةٍ من الكاهن تسمح بالتفسيح له. إنهُ يريدُ أن يتأكدَ من أن الحب والحب فقط هو ما يجمعنا ولا شيء آخر!»

تطلعَ بي نظرةً معناها «افهمي» جعلتني أرتبكُ من أفكاري، ثم انطلقنا إلى الجبلِ باتجاهِ أحدِ الأديرة في منطقةِ غزير حيث لقاؤنا المرتقب مع الكاهن.

خلالَ الطريق، كانَ الصمتُ سيدي والحاكمُ بأمري. كنتُ أقلّبُ مشاعري يميناً وشمالاً ومعها تردّدي وحيرتي، وكذلكَ ما بقي من حبّي لحازم الذي أنهكه تضاربُ قناعاتي التي لا سلطةَ لي عليها. ما الإنسان سوى قناعاته؟ ما الرجلُ سوى قناعاته؟ حينَ تسقطُ القناعات مثلَ ورقِ الشجر يسقطُ معها حبّي بنفسِ الإيقاع والطريقة. كلما سقطت واحدة انهارت قطعةٌ من إناءِ حبي الخزفي وتداعت. القناعات الراسخة تفتّنني إذا ما كانت تحملُ بذورَ البقاء للهوية والأرض. هكذا أنا بكل بساطة، أزنُ الأمورَ بمكيالِ الوطن، غير ذلك أشعرُ بميوعةِ بقيةِ القناعات، ربما لأني ولدتُ في بلدٍ مواجهٍ أو بسببٍ من تربيتي التي نَحّت الطائفة وقدّست الأرض ورأت في الانتماء الرصين والتماسك الحاسم ديناً ودنيا. الرجل المتذبذب، الرجل الحائر، الرجل الذي يضعُ في كفّةٍ موقفه الشخصي الديني وفي كفّةٍ أخرى وطنه لا أتمنّاهُ لا شريكاً ولا صديقاً ولا أريدُ أن أمرَّ به في الشارع ولو مروراً عابراً. وحازم لم يكن متردداً ولا متذبذباً، فقناعاته كانت حاسمة بالنسبة لطائفته ولمستقبلِ هذهِ الطائفة لكنه كان يؤلمني أن لا يكون بصره أكثر قدرة على المسح فيرى الأرضَ كلها معاً نظرةً واحدة، نظرةَ حبٍ واحدة. ولم تفلح في هزِّ هذا الصمت لاحقاً اللمسات الخاطفة التي كان حازم يبادرُ بها ولا الابتسامات المشجعة المحفزة والمتشنجة في آن.

حين وصلنا رأيتُ قبةَ الدير القديم القرميدية غارقةً بين الأشجار بينما ارتاح طابقَاه الاثنان فوقَ تلةٍ ذات انحدار خفيف. نزلَ حازم من السيارة ثم رتّبَ هندامه جيداً ورسمَ على وجههِ ملامحَ رجلٍ يتهيأ لتقريرِ مصيره. طلبَ مني أن أخلعَ قبعتي، «بلاها أحسن»، قالَ لي، ثم أمسكَ يدي ودخلنا إلى البهو العتيق.

ما إن دَلَفنا حتى شممتُ رائحةَ تاريخٍ محترق. كأنّ الديرَ يشبهُ معتقلاً

للإيمان؛ بعيداً ومنفياً. إنه يبعثُ برسالةٍ واضحةٍ لكل من يهمّه الأمر؛ بقدر ما الدين مؤثّث ليكونَ طابعه شعبي، بقدرِ ما يُساء فهمه على مستوى شعبي أيضاً. إنه بعيدٌ وقريب في آن مثلَ هذا الدير الهاجع والساكن بينَ الأشجار. لقد لمحتُ فيه طابعاً قوطياً بدرجة ما؛ النوافذ الدائرية التي تتصدرُ الأقواس والشكل المستطيل الطويل لبنائِهِ. حتماً لم تأتِ المسيحية من روما أبداً، فقدماها لم تطأا أرضَ أوروبا إلا بعد ثلاثةِ قرون، كما لم تنجب اليونان مسيحاً وإنما الناصرة. أما النشيدُ المسيحي فقد أطلقَ أبواقه في أرضِ كنعان وكانَ شرقياً محضاً. لقد كانَ الديرُ فيما مضى مدرسةً قبلَ كل شيء وليسَ كنيسةً فقط أو خاناً للعابرين. لقد كانَ همّ الأديرة القديمة أن تعلّمَ الرهبان والأطفال الذين يتحضرون لحياةِ الرهبنة. كانَ كل ديرٍ مدرسة، وكل تربيةٍ إنما تتمُّ في ديرٍ أو في مؤسسة يديرها الرهبان. أما العلمُ والفلسفة فلم يكونا رسميين، ولم يحظيا بشرفٍ تربوي مميز. تُرى، هل كان الرهبان حقاً يمحون الفلسفات القديمة وآدابها ومعارفها الممهورة على رقِّ الحيوانات لكي يكتبوا بدلاً منها سِيرَ القديسين وحياةَ الأديرة اليومية؟ كانَ العلمُ دينياً بامتياز، ولقد عرفت المسيحية كيفَ تُحلُّ الترويض الأخلاقي محلَّ الفلسفة الأخلاقية، وأن تهيّئ إنسانها لا لهذهِ الحياة وإنما للحياةِ الآخرة. لقد كرهت السعادة العاجلة ونزوات الروحِ الصغيرة وهذا التبدّي المُلفت للجمالِ الجسدي واعتبرتها حصوناً وثنية يجبُ دكّها. قالت إنها أتت للفقراء، وفي الحال فرزت هذا العالم إلى طبقتين؛ الدينُ للفقراء والعلمُ والفلسفة للأغنياء، وجعلت مجرد التفكير بهما يُشعر بانقسامِ العقلِ إلى نصفين. الاثنان يبحثان عن الحقيقة لكنّ كلّاً منهما في رقعتهِ الخاصة. اليوم، لم تعد تحاول هذهِ الأديرة أن تتركَ بصمتها على كل شيء، ابتداءً من قصّةِ الشعر وحتى ترتيبِ الملاعق في جواريرِ المطبخ، وذلكَ لأن الثورات الاجتماعية لاحقاً في أوروبا قد أطاحت بها رسمياً. أما قرار حياتي

فهـو تحصيـلُ حاصـل لأنـه هنـاك بين الأيـدي التـي أتقنت التضـرعَ ودفـع صواني التبـرع أمـامَ المؤمنيـن. لقـد جعلنـي هـذا الدير أفكـر بعقليـةِ العصورِ الوسـطى، فالتاريـخُ يحتـرقُ فـي زواياه ولقد شـممتُ رائحـةَ الاحتراق حالما دلفـت من دونِ قبعـةٍ أنـا وحازم مـن بابـهِ الحديـدي العريض.

وبينمـا كنـتُ أتأبّـطُ حيرتـي، كانَ حـازم يمسـكُ بيـدِ جـان دارك ويتقـدمُ بخطـواتٍ راسـخة. وهنـاكَ أمـامَ بـابِ مكتـبِ الكاهـن الملحـق بالكنيسـة، هبّـت نسـمةٌ رطبـة لهـا نكهـةُ أحجـارِ الديـر بينما لاحت صـورةٌ لمار شـربل أعلـى الباب وكأنـهُ حـارسٌ للمـكان.

«الأب جوزيـف هـو رئيـس الديـر والكاهـن الرسـمي لخدمـةِ قـدّاس الأحـد فـي الكنيسـة هنـا. إنه صديـقٌ قديمٌ لي من أيامِ الدراسـة والحـرب»، هكذا عرفني حـازم علـى الكاهـن الـذي بـادرَ فـي الحـال مُرحبـاً بابتسـامةٍ مرتبـةٍ ورعـة، «أهلاً مريـم... سـمعتُ عنـكِ كثيـراً مـن حـازم تفضلي.. تفضـلا..» ثم أشـارَ إلى كرسـيين فخميـن مـن الجلد البنـي أمـامَ مكتبهِ.

(21)

لمحتُ جرثومةَ الحرب في عيني الأب جوزيف. رأيتها ساكنةً هاجعة لكن حاضرة. لقد كانا، هو وحازم، من أبناءِ الحي نفسهِ الذي تلقى نصيبه من قذائفِ الهاون والصواريخ التي كان يُمطرهم بها (الفريق الثاني). وبينما داوى حازم جرثومته بالصحافة والسياسة والحب لاحقاً، داواها رفيقه بالتنسكِ والرهبنة بعدَ أن أدمت يديه الأسلحة التي كانت تَرِد إلى حيّهم من الحزب والتي برعَ في دكّها وفكّها وتعبئتها والتصويب بها. ندوبٌ كثيرةٌ رسمها بتؤدة الصهيوني والفلسطيني والسوري والأمريكي والفرنسي وكل العرب من المحيط إلى الخليج على روحِ اللبناني الخارجة للتو من حربهِ الأهلية الطويلة. لقد رأيتُ كل هذا بلمحِ البصر في عيني الأب جوزيف الخضراوين الغائرتين. قد يضيعُ التاريخ المُدوّن على الأوراق بسهولة لكنه من المستحيل أن يُمحى من نظرةِ العين. العيون هي وعاء التاريخ الأبدي. ولكن مَن يُتقن القراءة؟ مَن يعرف كيفَ يفكُّ شيفرة الهذيان والتّيه الإنسانيَّيْن ويداوي العطب المزمن فيهما، مَن؟

كانَ الأبُ جوزيف كتائبياً مُرّاً عاشَ تحتَ وطأةِ (الوطن المسيحي) المهدد بالثورة الفلسطينية والشك بالنوايا العربية التي كان موقفها محسوماً

لصالح الثورة، والنوايا الغربية التي رأت الحلَّ بالهجرة الجماعية للمسيحيين إلى أمريكا. امتلأ بفكرة المؤامرة والخوف من دفنِ القضية الفلسطينية في لبنان إلى غير رجعة وتوطين الجميع. لقد كان يرى الوطن الإسلامي / المسيحي مستحيلاً وهو قابضٌ على سلاحِ القناص في ليالي الحرب الطويلة. كان شاباً يافعاً عندما لفّت المناطق المسيحية حواجز النار وهكذا وجدَ طريق الإيمان سريعاً في أفقٍ آخر، بعيداً عن وسطهِ الطبيعي. نظرة عينه الحزينة العميقة وانحناءة ظهرِهِ الخفيفة المبكرة ونحولهِ وبداية الشّيب على مفرقهِ هي آثار جرثومةِ الحرب لا محالة.

أيقظتني رائحةُ التاريخ المحترق مرةً ثانيةً من أفكاري حينما استرحتُ على كرسي مكتبهِ الوثير.

- من أين نبدأ؟ قالها الأبُ جوزيف مبتسماً بمرحٍ وهو يفركُ يديه.

ابتسمنا أنا وحازم وتطلّعنا ببعض.

- عظيم... عظيم... يبدو أن مهمتنا ستكونُ سهلةً وسريعة. أنتما ناضجان ولا أعتقدُ أننا سنضطرُ إلى جلساتٍ طويلة لكني أريدُ أن أرى كلاً منكما على انفراد على الأقل لمرةٍ واحدة.

هززتُ رأسي علامة الموافقة وكذلكَ فعلَ حازم ثم أخذنا نستمعُ إلى عظةٍ قصيرةٍ عن الزواج الماروني وأصولهِ والذي لا فكاك منه حتى بالخيانة. كنتُ أصغي بروحِ الإنسان الذي يريد أن يتعلم، واضعةً جانباً قدرَ الإمكان روحَ مريم التي تتحضرُ للزواج. هل هذهِ مقدرةٌ خلقها النضج؛ أن أفصلَ ذاتي عن المعلومة التي أسمعها فأستفيد منها؟ رأيتُ الإعجابَ بإصغائي في عيونِ حازم الذي كانَ ينقلُ بصره بسرعةٍ خاطفة بيني وبينَ الأب جوزيف. رأيتُ الراحة التي هبطت عليهِ فجأة والابتسامة الخفيفة المرسومة على وجهه، فها نحنُ نصلُ إلى آخرِ الطريق معاً رغمَ كل الصعوبات. يومان والورقة ستكونُ بيدهِ

وسنتمكنُ من الزواج حتى في أصغرِ كنيسةٍ على أعلى رأسِ جبلٍ في لبنان.

وأخيراً، التقيتُ وجهاً لوجه أنا والأب جوزيف بعدَ أن خرجَ حازم. كان العالمُ واقفاً على طرفِ هاوية. أنا السورية العلمانية وهو المليشياوي السابق وراعي الكنيسة الحالي. أي هوّةٍ تفرّقُ بين عالَمينا وأي جسرٍ يمتدُ فوقهما؟ وكما علمته الحرب كيفَ يكون بارعاً في التصويب كذلكَ علمته كيفَ يقتنصُ اللحظة وينطلقُ منها مثلَ الشَّرَر. وتبلبلَ السكون بكلماتِ الرجل التي نفذت إلى داخلي كسهمِ النار:

- تعلمتُ أن أشيدَ بناءَ علاقتي مع الآخرين على صخرةِ الوضوح. هل أنتِ كذلك أيضاً؟

- نعم.. أنا مثلك؟

- إذاً، هذا يُسهّلُ حوارنا إلى أقصى حد.

- كلّي سمع.

- مريم... لكلّ امرأةٍ ورجل ماضٍ ما في بيروت الحرب الأهلية. ماضٍ ملأهُ الألم والجروح والدماء وأصواتُ الهاون. لقد دفعَ اللبناني سلفاً ثمنَ موتهِ واستراح. دفعهُ (على آخر فرنك) وهو اليوم غير مديون لا للدنيا ولا للآخرة ويحقُّ لهُ أن يحيا لحريتهِ ولموقفهِ الجديد من كل شيءٍ حوله. لقد خلّفَته الحرب بندوبٍ واضحةٍ في وجهةِ نظرهِ وروحه. اليوم أنا لستُ فقط هذا الكاهن الذي يحضرك أنت وحازم للزواج، فوراءَ هذهِ الطبقة تركنُ طبقاتٌ أخرى أقدم وأكثر حدّةً أتمنى أن تريها. قد لا تكوني معنيةً بها الآن ولكني أرغبُ حقاً بأن أشرحها لكِ لأنها هي ذاتها التي تركنُ في قلبِ حازم وتحتَ جلدهِ.

وقامَ الأبُ جوزيف من مكانهِ وراءَ المكتب الخشبي وجلسَ على الكرسي المقابل أمامي ثم أكمل:

- أنا لا أستغربُ الحبَّ بينك وبينَ حازم. الحب بذاتهِ قادرٌ على تذويبِ التناقضات. لكني أفهمُ أن جريمةَ الحريري أرخت بثقلها عليكما، عليكِ أنتِ بالذات. لم يكن من الصعوبةِ أن أرى هذا على وجهكِ أولَ دخولك.

- .....!

- لكنكِ لم تعيشي الحربَ مثلنا. قد تساعدكِ قراءةُ التاريخ على الفهم ولكن معايشته ربما هي أمرٌ آخر.

- أنا أحاولُ أن أكونَ موضوعية دائماً.

- لم نكن نحنُ وأنتم موضوعيين في فهمنا لبعضنا البعض يوماً. لم نكن أبداً. حين دخلت قواتُ الردعِ إلى بيروت الشرقية، ظنّتْ دمشقُ أن المسيحيين سوفَ يرشّون آلياتها العسكرية بالأرز خصوصاً أنها أتت لكي تردعَ الانفلاش الفلسطيني في كلّ مكان. لكن هذا لم يحدث. لقد كان صعباً علينا أن نرى الحواجز السورية تفتشُ المارة والسيارات وتطلبُ هوية هذا وتُنزلُ ذاك وتحقّقُ معهم. لقد عادَ كلّ هذا الحذر القديم في لمحِ البصر، عادَ لأنهُ لم يزل يوماً أبداً. كل شهور العسل بين لبنان وسوريا أتت بعدَ زواجٍ سريعٍ وابن لحظته التي فرضتها الظروف. لم يقبل المسيحي أن يمارسَ العسكري السوري عليه سلطته حتى لو كانَ الثمن وقفَ الحرب!! أنا أعترفُ لكِ أن نظرةَ المسيحيين إلى عسكر سوريا هي نظرة فيها الكثير من التعالي، النظرةُ نفسها إلى العمال السوريين الذين كانوا يأتونَ بالآلاف ليعملوا هنا في أملاكِ المسيحيين وأراضيهم. لم يتحمل المسيحي أن يرى العاملَ الذي كان يعملُ في أرضهِ يوماً واقفاً على الحاجز يطلبُ منه بطاقته الشخصية. لم يتقبله صاحب سلطةٍ حتى لو كانَ حدود ذلك سؤالاً بسيطاً عن الهوية. نحنُ لم نُرد يوماً التعامل مع إسرائيل. كنّا أمامَ خيارين، إما الفناء في الرقعة التي عُزلنا بها وأحاطَ بها سياجُ النار بينما نقاوم الفلسطيني الذي أرادَ إشعال ثورتهِ ها

هنا، أو اللجوء إلى إسرائيل لطلبِ الأسلحة! لقد لُذنا بأهون الشّرّين وقرّرنا البقاءَ على قيدِ الحياة. لو كانت سوريا تقفُ إلى جانبنا من أولِ يومٍ اشتعلت فيه الحرب ولم تأخذ جانبَ الجبهةِ الأخرى لما فكرَ أحدٌ فينا بطلبِ المعونةِ من أولئك. أنا نفسي من تبرعَ بالذهاب على متنِ مركبٍ صغير إلى مرفأ حيفا لمقابلةِ اليهود. كنّا حفنة مترددين. تركنا مرفأ جونيه وانطلقنا إلى عرضِ البحر. لم يكن الأمر سهلاً. لم نكن نعرفُ عدد مقاتلينا وكميةَ الأسلحة التي في حوزتنا. كانَ الأهالي يتبرعون بالذخيرة ويشترونها من أموالهم الخاصة وينزلون إلى الشوارع لكي يقاتلوا. وفي يومٍ، نفذَ كل شيءٍ لدينا وكنا قابَ قوسين من الفناء وهكذا بدأ كل شيء. كانَ الجيشُ غائباً والسيادةُ مستهدفة من الفلسطينيين ومن معهم من الأطراف التي أرادت أن تضعَ حدّاً لحكم الموارنة في لبنان. لم يكن أمامنا إلا هذا الطريق. في الحربِ يا مريم لا يمكن الاحتفاظ طويلاً بأيديولوجياتنا القديمة. في الحربِ كل شيءٍ جائز. ما يحدثُ اليوم ليس سوى إحياء للتركةِ القديمة، إحياء مرّ وقميء. لا تزجّي بحبكِ أنتِ وحازم في قلبِ هذا الجنون ولا تدعي مسيرةَ زواجكِ منه تتطابقُ مع مسيرةِ زواجِ البلدين لأن هناكَ الكثير من أيمان الطلاق التي ستُلقى بينهما وكثير من عودةِ المياه إلى مجاريها أيضاً. هكذا نحنُ صديقان لدودان.

أطرقتُ طويلاً بعد أن أنهى الأب جوزيف كلامه، ولم أقوى على الرد أو ربما لم أرى فائدةً من فتحِ بابِ الهول مرةً ثانية. ابتسمتُ لهُ بهدوءٍ وهززتُ رأسي بتأملٍ متوترٍ وخرجت.

لم أعثر على حازم ينتظرني في الخارج. بحثتُ عنه في غرفةِ الانتظار الملحقةِ بمكتبِ الأب جوزيف فلم أجده. خرجتُ إلى الحديقةِ المحيطة بالدير أيضاً لم أعثر عليه. عدتُ أدراجي ودخلتُ من البابِ المُفضي إلى الكنيسة، فرأيته هناكَ راكعاً في الظلام أمامَ المذبحِ يُصلّي.

كل شـيءٍ كانَ متوقعـاً إلا أن أرى حـازم بأمّ عيني مطأطـئ الرأس للأيقونات، مغمـض العينيـن ويُصلـي بضراعـةٍ أمـامَ الـكأسِ المقدسـة. أخيـراً هـو فـي مكانـه الطبيعـي تمامـاً ولكـن مـن الجهةِ الأخـرى للمذبح.

(22)

أخـذت غربـانٌ كثيرةٌ تنعقُ في سـماءِ بيروت. كنتُ أسـمعها بوضـوحٍ لا لبسَ فيـه. وتحـتَ هـذه السـماء ودّعني حـازم أمامَ بـابِ بيتي وانطلقَ بسـيارته سـعيداً. أتخيّلـه يغنـي بالفرنسـية وهـو عائـدٌ إلى عملـهِ وقد امتلأ بنشـوةِ الانتصـار والحب فـي آن. أكـره أن أخذلـه، هـذا الذي وضـعَ بينَ يدي حبّـه وحيرته وقلقـه وكل وجعِ الماضـي. لكـن للحـب تبعـات وللعيـشِ المشـترك تنـازلات ولصيـغِ التفاهـم منـاخٌ سـيفرض نفسـه علينـا لا محالـة. فـإذا كان حـازم قـد دفعَ سـلفاً ثمنَ موتـه كما قال صديقـه الحميـم الأب جوزيـف، إذاً مـا هـو ثمـنُ موتي أنا؟

أصبحـت العـودة إلـى اللاذقيـة لا مفـرّ منهـا مـن أجـلِ التحضيـر والتفكيـر وتهيئـةِ العائلـة لمـا هـو قـادم. أصبحتُ أقـربَ للواقع وأبعـد عن الأحـلام، أحلامي التـي لُويـت رقبتهـا بـكلِ قسـوةٍ وتمزقـت غلالاتهـا واحـدةً واحـدة وتشـوّهَ وجهها حتـى بـدت كطفلـةٍ لقيطـةٍ في شـارعٍ خلفي. سـأتزوجُ قريباً، وسـوفَ يُضاف اسـمُ عائلـة حـازم إلـى اسـم عائلتـي كمـا هـي العـادة هنـا. سـوفَ يظهـرُ الاسـمان معاً مـن الآن فصاعـداً علـى كل كتبـي القادمـة وأبحاثـي ومقالاتي، وسـوفَ يبـدو عليَّ سـيمياء الزوجـةِ الرصينـة فـي المحافـلِ الأدبيـة والاجتماعية التي سـيصحبني إليها معـه، وهنـاكَ سـوف لن يكـون بإمكاني أن أخالفه الـرأي كثيراً، فنحـنُ واحد ورأينا

واحـد وموقفنـا واحـد. وإذا مـا فكّر في المسـتقبل أن يصبح نائبـاً أو وزيراً أو حتى رئيـسَ حـزب، كمـا هو الحال في مسـيرةِ بعـضِ الإعلاميين أو الصحفييـن فعليّ أن أقـفَ وراءه وأدعمـه بقلمـي أولاً وبموقفـي. ومـن يـدري، لربما حضـرَ إلى صالون بيتنـا رجـالٌ ونسـاء لا أتخيّـلُ رؤيـةَ وجوههـم يومـاً مـا، ولا أتمنـى أن أضـعَ يـدي فـي أياديهـم أبـداً! ولربمـا اضطرّنـي الأمـرُ حتى أن آخـذَ الصـور التذكاريـة برفقته فـي حفـلاتِ الاسـتقبال فـي سـفاراتِ دولٍ أعتبرهـا كارثـة علـى رأسِ أمّتـي! لربمـا حـدثَ كلّ هـذا وأكثـر.. مـن يدري! وحيـنَ يأتـي أولُ طفلٍ فإنه سـوفَ يُصغي إلى أيديولوجيتيـن متناقضتيـن، وسـوفَ يتعـرفُ على نسـختين متضاربتيـن عن مفهومِ النضـال وسـوفَ ينمـو علـى التمـزقِ لا الغنـى وعلـى التشـتتِ لا التناغـم وسـوفَ يذبـلُ الحـبُ ويمـوتُ مثـلَ وردةٍ شـاميةٍ في عـزِّ عنفوانها.

غطّيـتُ وجهـي بيـدي وأنـا أبتعـدُ بمخيلتـي إلى مشـاهدِ حياتنـا المفترضة، مشـاهد يتقاطـعُ فيهـا الحـب والإكـراه الصامـت والحـذر والتهـرب والمسـامحة والوفـاء الـكاذب وكلمـات الـودّ الروتينيـة واللمسـات الخاليـة مـن الإحسـاس والتنـازلات أخيـراً لصالـحِ العائلـة ولصورتنـا أمـامَ الآخريـن وكأنّ كل شـيءٍ علـى ما يُـرام. أصبحـت العـودةُ إلـى اللاذقيـة أمـراً لا مفـرَّ منـه. سـألتقطُ أنفاسـي هنـاك. هكـذا فكّـرت.

تركنـي حـازم أعـودُ علـى مضَض في سـيارةِ عبد السـلام التي يقودها سـائقه الخـاص. لقـد أتـى فـي صبـاحِ اليـومِ التالـي باكـراً ليُودّعني. قالَ أشـياء كثيـرة وهو يمسـكُ بيـدي ولكنّـي لـم أكـن حاضـرة تمامـاً لأسـتوعبها. رأيـتُ شـفتيه تتحـركان بتواتـرٍ هـادئ متقطـع وعينيه ناعسـتين ذابلتين لـزوم اللطف. ثم احتضنني وشـدَّ بـكل قوتـه قبـل أن أصعـدَ إلـى المقعـدِ الخلفـي وهـو مـا زالَ يمسـكُ يـدي وأنـا أتطلـعُ إليـهِ مـن نافـذةِ السـيارة بينمـا كانَ يتلفـظُ بكلمـاتٍ تطمينيـةٍ ونحـنُ على وشـكِ الانطـلاق. ومـرة أخـرى قبّلني بسـرعةٍ وشـدَّ على يـدي بقبضتـه، «انتظريني

الأسبوع القادم.. أنا جاي يا عروس». وانطلقنا.

في الطريق، اتصلَ بي عدةَ مرات ليطمئنَّ عليّ، «اتصلي بي متى وصلتِ الحدود»، «اشتقتُ لكِ، كأني لم أراكِ منذُ دهر»، «هل السائق مسرع؟ قولي له أن يتمهّل»، «لا تنسي أن تتصلي أول دخولك المدينة» وكلمات أخرى سدّت الأفقَ أمامي. كنتُ أراقبُ مشاعري التي فاضت إلى خارجِ السيارةِ المسرعة. شعرتُ بالانفصام، كأنّ شيئاً انزاحَ من مكانه في داخلي وابتعد. لقد كنتُ أعاين هذا الشعور طوالَ الطريق مشكّكةً بوجوده ومتجنّبةً مواجهته، مُرجعةً كلّ شيء إلى غثيانِ السفر الذي زادَ من حدّتهِ الحفرُ الكثيرة والبرك الممتلئة بماءِ المطر قبلَ المنطقة الحدودية وما بعدها بقليل. كانَ رأسي مائلاً على الزجاج أتطلعُ بطرفِ عيني على المشاهد التي تمرّ مسرعةً من ورائه وقد ملأني حدسٌ لا سلطةَ لي عليه؛ لستُ بعد مهتمة بأيّ شيءٍ وإنني لو متُّ اللحظة لكانَ الأمرُ سيّان عندي.

عندما وصلتُ إلى منطقةِ (العبدة) قبلَ الحدود السورية بدقائق، كانت المحلاتُ التجارية مغلقةً كلها إلا من بعضِ بقايا الألبسة المزركشة المتطايرة على الحبال التي كانت معلقةً على أبوابها الخشبية العالية والتي أُدخلت على عجل. الطريقُ كله، من بيروت وحتى منطقةِ المعابر الحدودية كئيبٌ وخالٍ. منذُ عشرةِ أيام كانت قوافلُ الشاحنات التي تحملُ البضائع بالاتجاهين تصلُ إلى بضعةِ كيلومترات مثقلةً بالمؤن والمواد بينما اكتظّت منطقةُ (العريضة) بسياراتِ الأجرة العمومية والخاصة وحركة نزولٍ وصعودٍ للركاب لا تهدأ. كان هناك ضحكات ونكات وصياح بين السائقين والركاب وموظفي الجمارك يبلبلُ الفضاء. كان هناكَ حياة. أما الآن فقد انتشرَ صمتُ القبور فوقَ هذه المنطقةِ المهجورة زادَ من حدّتها البرد القارس والحذر المريب.

هربَ عقلي مرةً ثانيةً إلى التاريخ وأنا أنتظرُ سائقَ عبد السلام لكي

يُنهي ختمَ الأوراق. لقد وقعَ يمينُ الطلاق بين البلدين فيما مضى ثلاثَ مرات في منطقةِ المعابر هذه. أولها عام 1948م، حينَ انتهت الوحدة النقدية مع سورية وأصبحت الليرةُ اللبنانية هي العملة الوحيدة ذات القوة الإبرائية في طولِ البلادِ وعرضها. أما ثانيها، فكان عام 1950م، حين أعلنت سوريا قطيعتها الاقتصادية مع لبنان ولم يعد هناكَ وحدة جمركية بينهما، وذلكَ بسبب الميولِ الليبرالية للاقتصاد اللبناني والتي لم تكن سوريا قادرة على استيعابها حينها بعد. ثالثُ طلاقٍ وقعَ عام 1973م، حين أقفلت سوريا حدودها كردٍّ فعلٍ على ما كان يجري بين المنظماتِ الفلسطينية والجيشِ اللبناني. واليوم، الحدود مفتوحة لكن الحياة فيها مؤجلة إلى إشعارٍ آخر. إنه الصمتُ الذي يسبقُ الطلاقَ بقليلٍ، أما البضائع القابلة للتلف والتي كانت محملة فوقَ قوافلِ الشاحناتِ الطويلة المنتظرةِ فإنها تُهيّئ هي الأخرى الزمنَ القادم لما هو أعظم. إنها قوافل لم تكن معدّةً لكي تُلقي حمولتها في مواقعها السورية فقط وإنما كانَ البعضُ منها يتحضرُ للعبور إلى الأردن والعراق والإمارات.

أعرفُ أنني أحتفظُ بطبوغرافيا سورية الطبيعية مطبوعة على روحي، وأعرفُ أن لبنان يقعُ فيها موقعَ القلبِ من الجسم، وأعرفُ أنني لا أتقنُ قراءةَ التاريخ من دونِ أن أتلمّسَ تضاريسَ الأرض التي جرى فوقها، فالتعرف يكتملُ باللمس، والثقافة العذرية لم تفعلْ شيئاً إلا تشويه الدنيا الحقيقية حولنا. لقد شَطَح العرب كثيراً في أدبيات العفّة حتى باتوا لا يعترفون بوجود أعضائهم التناسلية. لقد اكتشفَ البحّارةُ المسلمون البوصلة المغناطيسية التي قادَتهم في الدروبِ الصحيحة إلى الشرقِ والغرب وكل الاتجاهات لكنهم حالما يصلون كانوا يرتبكون ويمتنعون عن التصرف بسببِ خوفهم من اللمس والاستكشاف. لقد امتلأت مراكبنا التي عبرت المحيط الهندي والمتوسط والخلجان بالبوصلات التي مهدت الطريقَ إلى كل العالم. لكن ما إن نصل حتى تتلبسنا العفةُ

فنعـرضُ عـن اللمـس، اللمـس الـذي يكتملُ فيـهِ الاكتشـاف والمعرفة.

حيـنَ أتطلـعُ إلـى خريطـة سـوريا وأرى هـذا التنـاوب الفتّـان فـي أراضيهـا المنخفضـة والمرتفعـة التـي تحـاذي بعضهـا البعـض، والممتـدة مـن الشـمالِ إلى الجنـوب علـى شـكلِ سلاسـل خمـس جميلـة، أجـدُ أن لبنـان يعبـرُ فـي أكثـر أربع سلاسـل أهميـة مـن بينهـا. إنه هناكَ يشـرفُ تماماً علـى الممر السـوري – اللبناني – الفلسـطيني. حيـنَ كنـتُ أتطلـعُ أنا وحازم من (حريصا) على هذا القسـم الضيق مـن السـهلِ السـاحلي السـوري، أدركـتُ كم كان صعبـاً عبوره علـى الفاتحين، وكم هـو الأكثـر أمانـاً ودفاعـاً عـن المقيميـن فيـه. أمـا الجبـال القريبـة الموازيـة لهـذا الشـاطئ فربمـا هـي الأكثـر ارتفاعـاً في سـوريا كلهـا والأكثر وعـورةً، إذ مـن أعلى جبـال هـذه السلسـلة الغربيـة يمكننـي أن أطـلَّ علـى وادي البقـاع الـذي يقـفُ متحكمـاً مـن طرفي هذه السلسـلة الجنوبية والشـمالية بالمعبرين الأساسـيين من السـاحل إلـى الداخـل. ليـس لبنـان بلداً صغيـراً. فالقلبُ هـو العضـو المتحكم في حيـاةِ الجسـدِ كلـه والمنفتـح علـى كل معابـره تمامـاً كمـا ينفتـحُ لبنـان علـى بلادِ مـا بيـن النهريـن والخليـج القـاري عـن طريقِ فرجـة حمـص والطريق التـي تؤدي مـن عـكا وحيفـا وصـور وصيـدا إلى دمشـق والصحـراء. إنه فـي المنتصـف كالابن المدلـل بيـنَ أبويـه ونقطـة ضعفهمـا الأولـى. أما سلسـلته الشـرقية فهـي المدخل أيضـاً إلـى الداخـلِ السـوري وكل مـا عداه عـن طريقِ معبـر مجدل عنجـر – وادي بـردى أو طريـق حمص - دمشـق. ألهـذا كانَ طريقُ القدس يمرّ عبـرَ جونيه؟ ألهذا كان الطريـق إلـى دمشـق يمـرّ عبـرَ عنجـر؟ ألهـذا كان لبنـان شـوكةً فـي الخاصرة الفلسـطينية والسـورية بأكثـر المعانـي جغرافيـة وعاطفية؟

هـزَّ شـرودي صفـق بـاب السـيارة بقـوةٍ مـن قِبـلِ سـائقِ عبـد السـلام. لقـد أنهـى معامـلات الخروج بسـرعة لكنه لم يسـلم مـن التهكم الصامـت فعادَ ووجهه مكفهـرّاً وفـي فمـهِ مـاء. وانطلقنـا بعـد أن عبـرَ الحـدود باتجـاهِ الطريـقِ المؤدية

إلـى مدينـةِ طرطـوس، وفي الحـال اختلفَ الهواء وكأننـي عبرتُ بوابـةَ الزمنِ بلمحِ البصـر ودلفـتُ إلـى عصـرٍ مختلفٍ كلياً. كل شـيءٍ هاجع ها هنا، كلّ شـيءٍ سـاكن تحـتَ رضِّ الصدمـةِ الأكثـر وجعـاً. حتى البرد القارس كانَ مـن دونِ ريحٍ أو ضجيج. طلبـتُ مـن السـائق أن يديـرَ المذيـاع وأخـذتُ أسـتمعُ إلـى أخبـارِ الظهيـرة مـن إذاعـةِ دمشـق وأتلمـسُ طريقي خبـراً خبراً في هـذهِ المنطقة علـى الجهةِ الأخرى مـن الحدود.

(23)

بـدت اللاذقيـة وكأنها لا تشـبهُ أيـةَ مدينةٍ أخـرى. حينَ رأيـتُ أطلالها تتصاعدُ أمامنـا ونحـنُ نتقـدم باتجاهِ مدخلها شـعرتُ أن كل شـيءٍ انتهى. كأننـي أغلقتُ باباً خلفـي ورجعـت. كنـتُ أتطلـعُ إلـى الناسِ فـي الشـوراعِ وكأنني أريـدُ أن أفهمَ شـيئاً مـن وقـعِ هـذهِ الكارثـة علينا. هل الوجـوم على الوجوه مجـرد فرطٍ فـي التّوهّم من قبلـي؟ كانـت الوجوهُ الأوغاريتية العتيقة قد حُبسـت في لحظـةٍ دقيقةٍ من انفعالها وكأنهـا خارجـة كلهـا من لوحـات (رامبرانت)؛ النظـرات التي تُفشـي التجليات الأكثر مـرارةٍ كانـت هنـاكَ ماثلـةً بكل وضـوحٍ ومـن دونِ مواربـةٍ على مُحيّا الجميع. حتى عندمـا دلفـتُ مـن بـاب المبنـى الـذي أقطـنُ فيـه عاجلنـي أحـدُ الجيـران بكلمـةِ «الحمـدُ للـه على السـلامة» بوقعٍ وجـرسٍ مختلفين وكأنني كنتُ قادمـة من محرقةِ غضبٍ مسـتطير.

لسـوريا حسـاباتٌ أخـرى. إنهـا تقـفُ علـى الضفةِ الأخـرى للنهر بينمـا تضعُ علـى عينيهـا كل عدسـاتِ الدنيـا. إنهـا تـرى الأشـياء أكبـرَ ممـا هـي فـي الواقـع، أو ربمـا هـي لا تـرى إلا الواقـع تمامـاً الـذي صغـرَ فـي عيـونِ الآخريـن وتلاشـى. إنهـا مكبّـراتُ الخـوف والحـب؛ كلاهمـا يُضخمـان الأشـياء ويُلقيـان عليهـا مسـحةً بأبعـادٍ خاصـة ليـسَ لهـا فـي الواقـع. الخـوفُ يجعـلُ مـن النملـةِ فيـلاً، أمـا الحبُّ

فيجعلنا نرى القردَ غزالاً. وسوريا إذا أحبّت امتلكت وإذا خافت امتلكت أكثر. وفي لحظةٍ ما تتطابقُ صورةُ الفيل والغزال ليصبحا وجهين لعملةٍ واحدة. ولهذه العملة – الصورة ذاكرة متألّمة ما زالت تحملُ رضوضَ العملِ الجراحي الانفصالي منذ وقتٍ قريب. أنا أرى بأمّ عيني كل يومٍ كيف يلتهبُ الجرحُ القديم عندَ أولِ احتكاكٍ وكيفَ تعثرُ سوريا على الدواءِ المُهدّئ. أرى كيفَ يتمُّ ترقيعه كل يومٍ ومداواته بشربِ ماءِ التعايش من «طاسة الرعبة» الشامية القديمة أو بالمحاليل العشبية المزروعة على قممِ الجبالِ الحدودية أو بقراءةِ نصوصٍ من التاريخِ الكنعاني العتيق. أرى كل هذا بعينِ الرضى لأني أؤمنُ بأنّ الطبيعة التي أوجدت المرض قد أوجدت معه في الجيبِ نفسه الدواء، فإذا كان المرضُ ها هنا فإنّ الداوء ها هنا أيضاً. لكن الوجوهَ التي هدّها الارتباك من وقعِ ما جرى كانت معطوبةَ الذاكرة فلم تعرف كيفَ تُهدّئ من روعها أو تضمّد هذا الجرح المفتوح أبداً وتهيلَ عليه ترابَ الفهم.

لقد عرفت سوريا أن عليها أن تقتلعَ ذاتها من لبنان من دونِ عملٍ جراحي أو حتى من دونِ أن يدفعها أحد ما قسراً لفعلِ ذلك. عرفت هذا قبل اغتيال الرجل. فحينَ يموت الحب بين الشريكين يصبحُ من غير المجدي نفخ الهواء في الدواليب المثقوبة أو اختراع القبل واللمسات الحانية، ويكبرُ حينئذٍ في عقليهما فهماً آخر لمصالحِ كليهما، كلٌّ على حدا، وجهد خفيّ يحفّزه أملٌ جنوني أن الأمورَ لربما قد تعود، هكذا في لحظةٍ ما، إلى مجراها الطبيعي. لكن هذا لا يحدث. فكلا الشريكين يعرفان أن الجراحَ الكثيرة تتراكمُ وتعلو مثل أهراماتِ الجيزة وتصبحُ واضحة للعيان بحيث يصعبُ تجنبها أو عدم الحديث عنها. الحب يجعل الأشياء ظاهرةً أكثرَ مما هي في الواقع أما الخوف يجعلُ الهروب منها أسرع. وكلّ حبٍّ يحملُ في تضاعيفه خوفاً ما يجعلُ فكرةَ الهروبِ حاضرةً بقوةٍ تارةً وبخفوتٍ تارةً أخرى. أما الاستسلام والتماهي الكلي

فهو معطى حقاً لقلةٍ ممن ألغت الثقة الخوفَ من قلوبهم وجعلتهم يرمونَ بأسلحةِ الندية والدفاع عندَ قدمي الآخر ويعزفون عن فكرةِ الهروب، الأمرُ الذي لم يحصلْ مرةً بين سوريا ولبنان.

لقد رأيتُ كل هذا بأمِ عيني عندما عدتُ إلى اللاذقية، رأيتهُ حتى في عيونِ الأطفال بينما كانَ عليَّ أن أتهيأ عملياً لعكس ذلك، فأقوم بالتخطيط، بروحِ المرأة اللامبالية، لحفلةِ عرسي وكأن شيئاً لم يكن.

طلبَ مني حازم بعدَ عودتي أن أرتّبَ لكل شيء بينما يلحقُ بي إلى اللاذقية؛ الكنيسة، تحضيَر مراسمِ الزواج مع الكاهن، وكل التفاصيل الأخرى التي تجتمعُ في عرسٍ مرموقٍ تقليدي. قالَ إنه لن ينتظر يوماً واحداً بعد، «قولي للكاهن أن يُكلّلنا في أقربِ وقتٍ يستطيع... وأنا قادمٌ خلالَ أيام».

وفي غمرةِ هذا التّيه وصلتني رسالةُ جواد الإلكترونية على (المسنجر) لتلقي ضوءاً فوق عتمةِ الغياب ولتضعَ النّقطَ فوقَ الحروف بخفّةِ يدٍ ساحر.

- «صباحُ الخير أيتها الهاربة... أين أنتِ؟ وصلتُ للتو إلى ليون وفكرتُ أن أكتبَ لكِ. كيف هي بيروت؟ أما زلتِ هناك؟ لا أتمنى أن تظني أني أتحامل على المدينة أو الماضي لمجرد التحامل لكني غيرُ قادرٍ على النسيان. أنا فلسطيني يا مريم. هل تفهمين هويتي؟ أجزمُ أنك تفهمين. اكتبي لي... جواد».

وفاجأته بردّي وكأني كنتُ بانتظارهِ:

- «عدتُ إلى اللاذقية... أنا أفهمُ ما تقول. نحنُ لا نتحامل. إنه الألم ولا شيء غيره. إني أراه أيضاً هنا. منذ أن عدت وأنا أراه معلقاً حتى في الهواء. لعلّه التاريخ.. التاريخ المؤلم بنسختهِ العربية».

- «آآ.. أنتِ هنا!!.. مريم..!! لم يُسمح لنا أن نكتبَ يوماً نسخةَ تاريخنا بالعربية. لقد كتبنا تراثاً مهولاً من الشعر بالعربية، ونزلَ القرآن علينا بالعربية،

لكـن بعـدَ ذلـك أتـى من يمسـكُ بيدنـا ونحـنُ نخـطُّ تاريخنـا التالي، وهكـذا أتت النصـوص بلغـةٍ غير مفهومـة... حدّثينـي عنك..».

- «عني أنا..!!».

- «نعم عنكِ أنتِ.. أشعرُ أنكِ قريبة جداً مني..».

- «ماذا تريدني أن أقول؟.....».

- «قولي أي شيء...».

- «سأتزوجُ قريباً....».

- «..... متى قريباً؟»

- «.. لا أعـرف.. أقصـد.. مـا زالَ هنـاكَ بعـض الأمـور بحاجـةٍ للترتيـبِ والحسـم..».

- «الحب مثلاً..؟!».

- «الحب!!.... نعم... إنه الحب..».

- «هل.. هل تحبينه؟..».

- «.....».

- «مريم... أنتِ معي؟».

- «.. نعم.. أنا معك».

- «هل تحبينه؟ ....».

- «.. لا أعلم! ...».

- «فهمت ..».

أخـذت الرسـائل بينـي وبين جـواد تتوالى وتخلـق حولي مناخاً لـم آلفه من قبـل، ولـم أسـتطع الخـروجَ مـن سـياجهِ. لقـد وضعنـي وجهاً لوجـه أمـامَ الحقيقة بـكل بسـاطة، الحقيقـة التـي لجِدّتهـا وسـطوعها جعلتنـي قـابَ قوسـين أو أدنـى مـن الانهيـار والدخـول فـي نفـقِ الاكتئـاب المريـر والأفـكار السـوداء. تُـرى هـل

هـي نفـس الحقيقـة التـي يردّدونهـا فـي وسـائلِ الإعـلام اللبنانيـة؟ لماذا لا أنسـى كل شـيء وأهتـم بالتفاصيـل الصغيـرة التـي وعـدتُ حـازم أن أقـومَ بهـا مـن أجـلِ التحضيـرِ للعـرس؟ لمـاذا لا أتجاهـل ما يحـدثُ حولي وأتوقفُ عن متابعةِ نشـراتِ الأخبـار والتعليقـات والشـتائم وفـوراتِ الغضـب التـي تصـدرُ عـن رجـالٍ فقـدوا الذاكـرة أو قطعـوا صلاتهـم بالماضـي القريـب وأداروا ظهورهـم لسـوريا بلمـح البصـر؟ لمـاذا أتـركُ نفسـي للتأثـر المُـرّ والانتبـاه الأخـرق لمـا يُقـال ومـا لا يُقال؟ لقـد بـرعَ كلٌّ مـن حـازم وجـواد فـي إثـارةِ غبـارِ التاريـخ حولـي وكأنـي فـي حلبةٍ لمصارعـةِ الثيـران. لقـد أدخلنـي كل منهما فـي عاصفتهِ بحذاقةٍ دخلنـي نابعةٍ من زاويـةِ رؤيـاه ومـن فهمـه «للحقيقة».

بعـدَ يومين مـن وصولي إلـى اللاذقيـة اتصلتُ بحـازم على هاتفـه الخلوي. عندمـا سـمعَ صوتي صـرخَ فرحاً:

- «بنت حلال».. كنتُ أفكر بالاتصال بكِ للتو.

- حازم.. أرجوك أخِّرْ قدومكَ إلى اللاذقية..

- لماذا.. ألم تنتهي من الترتيبات؟

- لم أفعلْ شيئاً بعد...!

- لماذا؟؟ ماذا بك؟

- ... أعتقدُ أن علينا أن نتريّثَ قليلاً....!

- .....

- لدينا الكثير من الوقت.. يعني لماذا العجلة..!؟

- .....

- ثـم إنَّ فتـرة تعارفنا كانت قصيرةً وأنـتَ... أقصد أنا وأنت لربما.. يعني.. أقصد لمـا لا نأخد المزيـدَ من الوقت. الورقةُ معنا... و...

- .....

- حازم! .... حازم... أتسمعني؟!

ردَّ بصوتٍ مخنوق:

- ... أسـمعكِ جيـداً.... اليـوم... اليـوم كنـتُ أقرأ مـا كتبَ الكاهـن على ورقةِ تفسـيحِ الـزواج التـي أعطانا إياهـا..... لقد كتب «الحب الشـديد».

- .....!!

هطـلَ مطـرٌ شـديد في تلـكَ الليلـة، مطرٌ يكفـي لإغـراق البلد لسـنةٍ كاملة. اسـتمرَّ المطـرُ بالهطـولِ لأيـام وحـازم لا يتصـل، بينمـا امتـلأ بريـدي الإلكترونـي برسـائل جـواد وأسـئلته ومقالاتـه ونكاته وصـور كثيرة لـه. الصداقات الكبيـرة تُولدُ فجـأةً وكذلـك الحـب الكبيـر، يحضـران مـن دون مقدمات لكـن دائماً فـي توقيتٍ خاطـئ. والتوقيـت الخاطـئ هـو افتـراضٌ كرَّسـتهُ العـادات الاجتماعيـة والقوانيـن الشـفهية ووجهـات النظـر التـي لوّثها الدِّيـن. التوقيـت الخاطئ يعني أننـا انحرفنا عـن الطريـق قليـلاً لأن شـيئاً مـا لاحَ فـي الأفـق يـروقُ للقلـب الذي قـضَّ مضجعه التصحـر والجفـاف القاتـلان. التوقيت الخاطـئ هو حجّة المتحجريـن، المتحفظين والحافظيـن لمسـيرةِ الحيـاة عـن ظهـرِ قلـب. إنه هرطقـة الذين لا قـدرةَ لهم على الإبـداع وحجـة المترهبنيـن الكَذَبـة. التوقيـت الخاطـئ هـو الادّعـاء فـي أوجـه حينمـا لا يكـون للمـرء قـدرة على فهمِ الإشـارات التـي تأتي من اللـه. لقد وصلتني رسـائل إلهيـة كثيـرة فـي توقيـتٍ خاطـئ. كنـتُ أتـردّدُ للحظـات لكـن لا ألبـثُ أن أنصـاعَ لهـا لعلمـي أن الجمـالَ لحظـة، والحقيقـة لحظـة، والمعنـى لحظـة، إن لـم نقبـض عليهـا، انتهينـا فـوق مزابلنا المُحسّـنة. وأنا سـأتصالحُ مع نفسـي في الحال، وأضـربُ بسـيفي الخفـيّ ضربـةً لا رجعـةَ عنهـا هـذا (التوقيـت الخاطـئ) وأجعـلُ منـه (اللحظـة المناسـبة) ثـم أكمـلُ طريـقَ حياتـي بصفـاءِ روحٍ لم تُخـدَش بعد.

(24)

يظنُّ أهلُ الشّام أن جمراتٍ ثلاث تسقطُ في شهرِ شباط على البشر والحجر. فالجمرةُ الأولى تكون في 5 شباط، وهي التي تجعلُ الهواءَ دافئاً. والجمرةُ الثانية تكون في 14 شباط، وهي التي تجعلُ الماءَ دافئاً، أما الثالثة فتكون في 21 شباط، وهي الجمرةُ التي تجعلُ الأرضَ تفورُ بالدفء. والشاميونَ لا يكتفونَ بذلك وإنما يعددونَ ظواهرها التي تختلفُ عن بقيةِ أشهرِ السنة، فشباط شهرٌ ناقصٌ في عددِ أيامهِ، قصير النَّفَس، متقلّب المزاج، فيهِ يكثرُ مواءُ القطط ويعلو ليتحولَ إلى ما يُشبه الأنين المتقطّع الذي يقتربُ في كثيرٍ من الأحيان من النّطقِ البشري، وهذا في بدايةِ الشهر. إنهم أيضاً يقولون إن القسمَ الثاني من فصلِ الشتاء إنما يُسمى الخمسينية التي تبدأ من أولِ ذلكَ الشهر وحتى إلى ما بعد منتصف آذار، ثم يقسمون هذه الخمسينية إلى أربعةِ أقسام متساوية زمنياً، كل قسمٍ فيها يتجاوزُ الاثني عشر يوماً بنصفِ يومٍ وسمّوها «السعود الأربعة». ولهذه التسمية قصةٌ ككلِ شيءٍ في هذهِ البقعةِ العريقةِ من العالم. يُحكى أنه في أيامِ الدولةِ الأموية كانَ هناكَ رجل اسمه سعد يجوبُ بلادَ الشام ليوصلَ البريد على ظهرِ الخيل والإبل. ومرةً خرجَ سعدٌ ببريدهِ في أوائل شهر شباط من مدينة دمشق بينما الأمطارُ والعواصفُ تنزلُ

مثلَ زخِّ السهام المنطلقِ منه إلا أن ذبحَ ناقته

واختبأ في داخلها فسُميت هذهِ الفترة من الشهر بـ «سعد الذابح». لكنه عندما جاعَ في الفترةِ التالية أخذَ يأكلُ من لحمِ الناقةِ التي ذبحها فسميت «سعد البالع»، تماماً مثل الأرضِ التي تبتلعُ كل ماءِ المطر الذي يهطلُ في الفترة الأولى. بعد ذلك، وحينما بدأ الدفء يغزو قلبَ الدنيا وتتمطى الحرارةُ في أرجائها وتأخذُ الطبيعةُ الخضراء بامتصاص الماء المختزن في باطنِ الأرض، سُميت الفترة «سعد السعود» لأنه نجا بنفسهِ من وابلِ المطر وقصف الريحِ الباردة. لكنّ الدفء يحرضُ على الخروجِ وهجرِ المخابئ فتتركُ الحيوانات أوكارها وتبدأ بالظهور لكي تبحث عن عيشها، وهكذا سُميت هذهِ الفترة بـ «سعد الخبايا».

في 14 شباط سقطت جمرةُ الماء على بلادِ الشام لتطفئ النارَ المشتعلة فيها. إن هذا التاريخ هو تماماً نهاية فترةِ «سعد الذابح»، اليوم الذي قُتل فيه (رفيق الحريري)، وبداية «سعد البالع» الذي سيستمرُّ حتى يوم 25. وبين الـ 14 والـ 25 انزاحت بيروت من مكانها مراتٍ ثم عادت ودارت على أعقابها وصالت وجالت ونادت وصرخت وشتمت وبكت وصَلّت وتوسلت وهددت وتوعّدت وقبلت وركعت وانتفضت.

لقد سدّت الحشود التي خرجت إلى الشارع منتفضةً أبوابَ المدينةِ المنهكة. فها هو الفريق الذي اتهمَ سوريا يملأ ساحة الشهداء محمولاً فوقَ هيجانه الشديد بينما الأعلام اللبنانية ترفرفُ فوقَ رؤوسٍ أكثر من مليون رجلٍ وامرأة انفلتَ غضبهم وحميتهم الوطنية مطالبينَ الجيشَ السوري بالخروجِ من البلد. أما في داخلِ البرلمان، فكانَ الغيظُ أكثرَ انضباطاً وتحايلاً على الديمقراطية. لقد طلبت شقيقة المغدور من رئيسِ الحكومةِ التّنحي في الحال طالما أن هذه الجريمة قد وقعت في الفترةِ التي يتولى فيها رئاسته، مُلمّحةً

مـن بعيـد إلـى تواطـؤ أحـ (عمـر كرامـي) مصدومـاً

إلـى تقديـمِ اسـتقالتهِ ليـسَ اسـتجابةً لها وإنما للشـارع الـذي خـافَ أن يفقدَ ثقته إلـى الأبـد. لقـد اتصـلَ بـهِ شـقيقه يخبـره أنـه يُشـتم ويُنتقـد حتـى في المسـاجد الموالية لـه فـي طرابلس، وهكذا تـركَ البرلمان بعـد أن اختفت ابتسـامته الهادئة عـن وجهـهِ الـذي عَـرف كيـفَ يُخفـي عصبيةَ مزاجـهِ وعنـاده الـذي لا يتزعزع في القناعات.

القلـوبُ المكسـورة أخـذت تتسـاقطُ علـى جهتـي الحـدود مثـلَ المطـر. قلـوبٌ كثيـرةٌ تداعـت، غطّـت إسـفلتَ سـاحةِ الشـهداء وكل لبنان. قلـوبٌ منفطرةٌ غطّـت سـوريا مـن بابهـا لمحرابهـا وفاضت. أصبحنـا بحاجةٍ إلى جيـشٍ من «عمال التنظيفـات» لكـي يكنسـوا البلـدَ مـن بقايـا وليمـةِ الحـب التـي انتهـت للتـو فـي «سـعد السـعود». لقـد أتى الطـلاق هذه المـرة مدوياً ومسـتعراً فائقـاً كلّ حدّ. لم يقبـلا حتـى الإصغـاء لبعضهمـا البعض، وبدا أن لعبـةَ الحوار بحاجةٍ إلـى باعٍ طويلٍ ومقـدرةٍ تتجـاوزُ حالتيهمـا المضطربتين.

لقـد رأيـتُ نفسـي مـرات كثيـرة معلقـة في الهـواء على وشـكِ السـقوط أو علـى شـفا هاويـة. ومـرات أخـرى كنـتُ أقـفُ علـى مفتـرقِ طريـقٍ وقـد أربكتني الحيـرة، ولطالمـا، فـي مثـلِ هـذهِ اللحظـات، كنـتُ أشـعرُ بقـوةٍ داخليـةٍ تحضـرُ لترشـدني إلـى الـدرب الـذي علـيّ أن أسـلكه أو تدفـعَ بـي عـن الحافـة، ولطالمـا، بعـد أن أتنفـسَ الصعـداء فـي مـكانٍ آمـن، كنتُ أتسـاءلُ من أين أتت هـذه القوة الحكيمـة فمدّتنـي بخشـبةِ الخـلاص! مـن كثـرة مـا تـرددت هـذه القـوة الصديقة فـي داخلـي وحضـرت في كل مـرةٍ أطلبها فيها، أخـذتُ أنتقلُ بتـؤدة وصفاء لا حدَّ لـه مـن هـذا التعلـق القلبـي بالأشـياء التـي أحبها إلـى الحبِّ ذاتـهِ، ومـن تفاصيل حياتـي الجميلـة إلـى عشـقِ الجمـالِ بذاتـهِ، ومـن الولـعِ بمـا هـو حقيقـي إلـى الإيمـان بالحقيقـةِ بذاتهـا، ومـن الافتتـان بالمتـع الصغيـرة إلـى البحـث عـن فهـمٍ

صميمي للسعادة. وها أنذا في هذهِ اللحظة، أقفُ على ضفةِ الحبِّ الأكبر الكلي الذي لا يمكن أن أعثرَ عليهِ في حبِّ شخصٍ واحدٍ بذاته، ولا يمكن أن أعيدَ اكتشافه في كل مرة وأنا مبهورة، من خلالِ الخداع وخيباتِ الأمل التي تزهرُ في الحبِّ الآني المكتفي والمشروط، حب الشخص الواحد، وذلك لأن طبيعة الحب الأكبر إنما تمتلئ بالرجاء، الرجاء الذي يتطلعُ دائماً إلى المستقبل. الحب الأكبر لا يتعبُ من أن يرجو ولا يكلّ من الديمومة بينما قلق العشق المؤقت لا يُشفي غليلي ولا كذلك الحقيقة المجتزأة.

قد يفهمُ حازم هذا الكلام وقد لا يفهمه، لكن جواد سيفهمه حتماً وإن كانَ على مضَض. أما أهلي والآخرون فلن يفهموا البتة أن هذا الموقف الوجداني هو تماماً وراءَ انسحابي من العلاقةِ التي هي على وشكِ الاكتمال بالزواج. سوفَ يظنون أني أخفي سبباً رئيسياً أكبرَ من هذا الهذر، سبباً «حقيقياً» وليسَ مجرد رأي «لا يقدّم أو يؤخّر» بشيء، كما يقولون، بل قد يرمونني بالمجنونة التي تضيّعُ «الفرصة الأخيرة» أو «الفرصة الأفضل». لقد ردّدوا على مسامعي عبارة «عريس لقطة» عشرات المرات بينما كانوا يقنعونني بالعدول عن «الانتحار» والانسياقِ وراء «الوهم». قالوا إن هناك آلاف بل مئات الآلاف من العائلاتِ المشتركة بين البلدين، هل يعني هذا طلاقهم جميعاً أو انفصالهم بسببِ موتِ الرجل؟ قالوا إن هناكَ قدراً يجمعُ البلدين بشريانِ الأنهار وسلاسل الجبال الممتدة التي تقيدهما كتوءمين سياميين لا ينفصلان. قالوا إن سحنتنا متشابهة وطعامنا متشابه وعاداتنا متشابهة. حتى شتائمنا وصلواتنا إلى الله وعبارات التشفي والحب والمزاح متشابهة. قالوا الكثير، فهل يعني انتهاء كل هذا بسببِ موتِ الرجل؟ ولكن، وبينما هم يتحدثون عن كل هذه الأمور، كنتُ أسألُ وماذا عن الروح؟ روحي أنا التي كانت ترغبُ في شيءٍ آخر تماماً، روحي الواعية والمتألمة في آن، روحي التي لوّثها تاريخُ بلادِ

الشـام الواحـد الأحـد بأسـاطيرهِ الكثيـرة وزلازلـه وهـذا الافتتـان المرضـي به.

(25)

حضرَ حازم إلى اللاذقية من دونِ أن يُعلمني. فتحتُ له الباب وتسمّرتُ أمامه:

- ألن تدعيني إلى الدخول؟

جلسنا في صالونِ المنزل صامتين يتطلعُ الواحدُ منا إلى الآخر بهدوءٍ مترقب، لكنه ما لبثَ أن أفرغ كل ما في جعبتهِ، «أريدُ أن أفهم ماذا يحدث!!... لا أريدُ أن أصدق أنَّ (رفيق الحريري) هو السبب وراءَ انفصالنا! هذا جنونٌ مطبق. أنا.. أنا لا أفهم كيف تُحللين الأمور... كيف ترينها..!! ما هي اعتباراتكِ؟ أولوياتكِ؟ لماذا لا تكونين من صفّي!! أنا لا آمركِ بذلك.. أنا فقط أطلبُ منكِ أن تكوني معي. دعينا نتزوج وبعدها ستقررين أنتِ بنفسكِ ما يروقُ لمصالحك، لمصالحنا معاً. أنتِ تبيعين الحبَّ هكذا بكلِّ قساوةِ قلب. تستدخلين أسباباً خارجة عن إرادتنا... أنا.. أنا حتى لم أعد أعرفك؟؟ أنا لا أريدُ عرساً بعدَ الآن... الورقة ها هي في جيبي.. لا تنشغلي بأية تحضيرات.. دعينا نتزوجُ اليوم.. الآن.. ببنطالِ الجينز.. ونرحل من هنا فوراً.. لنغلقَ الباب على كل شيء ونفكر في مستقبلنا معاً.. أرجوكِ يا مريم.. عودي معي إلى بيروت.. الآن.. الآن..».

لـم ينـاور حـازم أكثـر فـي الحـب. قـالَ كل مـا فـي قلبـهِ دفعـةً واحـدة. سـوفَ يكتفـي بكتابـةِ آرائـهِ ونشـرها والمواظبـة علـى المشـاركة فـي المقابـلات التلفزيونيـة السياسـية وحضور السـهرات الخاصة التي تسـمحُ له ببعـضِ الخبطاتِ الصحفيـة فـي اليـومِ التالـي، فسـحنته الأرسـتقراطية التـي توحـي بالدبلوماسـية والسـرية لا تمـتُّ بصلـةٍ لطبيعتـهِ، وميلـه للمماحكـة لا ينطوي على أي شـيءٍ من اللـفِ والـدوران، وهـذهِ المسـافة التـي لا يعـرفُ كيـفَ يتركهـا دائمـاً بينـه وبيـنَ الآخريـن لـن تجعـلَ منه رجـلَ حرب يرتفـعُ فوقَ جثـثِ خصومهِ ويبرعُ في سـفكِ الدمـاء. لـن يمـرَّ حـازم في أي «مطهّـر» لاحق، فلقـد نزلت منه آخر قطـرة أمامي. بـدا واضحـاً مثـلَ الشـمس بـكل أبعـادهِ. هكـذا هـو وهكـذا يفكـر وهكـذا يحبني وهكـذا غـادر اللاذقيـة بعـدَ أن لبـسَ فـي إصبعـهِ الصغيـر الخاتـم الـذي قدمه لي فـي حريصـا أمـامَ تمثـالِ السـيدة العـذراء. لقـد تـركَ لـي إرثاً مـن الرسـائل النصية والصوتيـة علـى هاتفـي الجـوال وكذلـك فـي بريـدي الإلكترونـي لـن يمحوها «زر الـ delete» لاحقـاً، ليـسَ بسـببِ هـذا الموقـف الاحتفالـي الصامـت الذي نشـعرُ بـهِ بعـد نهايـةِ كل قصـةِ حب؛ «سـتبقى فـي قلبـي للأبد»، وإنمـا لأنه لـم يُمحَ أي شـيءٍ وقـعَ بيـنَ البلديـن منـذُ آلافِ السـنين وإلـى هـذهِ اللحظة ولا حتى سـقوط شـعرة مـن رأسِ طفـلٍ صغير.

عـادَ حـازم إلـى بيـروت بعـد سـاعةٍ مـن لقائنـا. لـم يسـتطع أن ينتظـرَ أكثـر، «طالمـا هـذا هـو موقفـك» كمـا قـالَ لي. لقـد عادَ مـن دون جـان دارك هـذهِ المرة التـي هـزت نبوءتهـا إيمانـه الـذي أسسـت لـه الحـرب الأهليـة وميـل دفيـن تجـاهَ الحلفـاء الطيفييـن. حتـى قمـرُ بحـر طرابلـس كان مخفيـاً وراءَ غيومٍ كثيرةٍ وسـحبٍ ماطـرة سـوداء وكذلـك بحـر بيـروت. عـادَ بحمولـةٍ كبيـرةٍ من سـوءِ الفهـم والغضب وعـدم القبـول. أعـرفُ أنـه اتصـلَ بمحاميه مارك اسـكندر حالمـا اجتازَ الحـدود، وأن هـذا الأخيـر سـيعرفُ مـن الآن فصاعـداً كيـفَ يخفف مـن أعبـاءِ صديقـهِ العاطفية

مـرديداً علـى مسـامعه، «السـوريون أكانـوا عمـالاً أم شـركاء بدهـم حلـم اللـه. مـن الآن وصاعـداً خلّينـي قريـب مـن قراراتـك»، فمـارك، هـذا الشـاب الرياضـي ذو الشـعر الأحمـر الجعـدي الممتلـئ بالطمـوح، يـرى كل شـيءٍ وكأنـهُ انتحـار خادمـة مـن شـرفةِ بيـتِ مخدوميهـا؛ جُـلّ مـا يمكـن أن يقدمـه هـو تأميـن إرسـالِ تابوتهـا بالطائـرة إلـى أهلهـا بشـكلٍ قانونـي. أمـا الأب جوزيف، فسـوفَ يلـوذُ بالصمت مع هـزةِ رأسٍ حكيمـة وسـيطلبُ منـه بوداعـةِ كاهـنٍ متفهـم «أن يصلـي لراحة نفسـي وراحـة نفـس البلديـن...» ضاربـاً بقبضتـهِ، قبضـة الحرب، بخفـةٍ على طاولـةِ مكتبهِ، وسـوف يكتفـي بالتربيـت على كتفهِ وقـد عَلَت وجهه ابتسـامة لاهوتية مسـتحدثة لـم يؤثـث لهـا الاقتتـال الأهلي القديم فقـط وإنما الجريمـة الأخيرة، وسيُسـرُّ له في أذنـهِ وهـو يودعـه أمـامَ بـابِ مكتبهِ فـي الدير المعـزول بيـن الأشـجار، «الأفضل أن تكـونَ خياراتـك القادمـة محليـة... نحن وهم لن نلتقـي أبداً.. ولا حتـى في الحب».

نمـتُ تلـكَ الليلـة علـى هـذه الهواجس وأنا أشـم مـن جديد رائحـةَ التاريخ المحتـرق لأصحـى علـى رسـالةِ جواد الـذي لا يعرفُ كيـفَ يوقفُ تدفـقَ اعترافاتهِ فـي كل مـرة ولا نهر مفاجآتـهِ التعبيرية:

«... كأنَّ سِـمةَ الانتظـار مرهونـة للعربـي.. تجعلينـي أنتظـر كثيـراً يـا مريم. ألا يكفـي الانتظـار الكبيـر.. انتظـار العـودة؟! تظنيـن أنـي توحدتُ مـع غربتي ها هنـا فـي ليـون! تظنيـنَ أنـي أتنقلُ مـن الجامعـة إلى منزلـي في ضواحـي المدينة سـعيداً بنمـطِ حياتـي الراقيـة! تظنيـنَ أنـي أكتـبُ فـي غرفـةِ مكتبـي المكيـف المليء بالكتـب بينمـا الغليـون فـي فمي مثـلَ كل مثقفـي المهجر «المتفرنسـين أو المتأمركيـن»! أنـا عصـيٌّ عـن التوطيـن ولا مانـعَ لـدي أن أكمـلَ رحلـةَ الانتظـار إلـى آخرهـا.... أقـولُ هـذا كل يـومٍ لطلابـي... أقولـه لهـم كل يـوم، للفرنسـيين، للعـرب ولليهـود.. لهـم جميعـاً أقـولُ إنـي مواطـنٌ زائـر، مهجـرٌ مرتيـن ومنكـوبٌ مرتيـن، وأنـي متـروكٌ يـومَ هُجـرت من بلـدي، ويومَ وُلـدت في المخيم فـي لبنان،

ويـومَ تخلـت عنـي المنظما [illegible] ت معاهدات السـلام، ويوم (أوسـلو)، وكل يـوم تكـون فيهـا عودتـي تحتَ رحمـةِ المفـاوض الإسـرائيلي..! لقد قطـعَ الانتظـار إحـدى سـاقي ولـن أبخـلَ بالثانيـة إن كانَ ثمنـه العـودة.. اكتبـي لي..» .

«انتهـت علاقتـي بحـازم يـا جـواد ولكنهـا لم تنتـهِ مع بيـروت.. لقـد أحببتُ المدينـةَ أكثـرَ منـه. أحببتهـا بمـا يفوق الوصـف. إني حتـى كنتُ أخـافُ عليها من علاقتـي بـهِ. علاقتنـا كانـت ستشـوهها أكثـر، سـتترك ندوبـاً جديـدة علـى بشـرتها الجميلـة وعلـى قلبهـا الضعيـف. لا أريـدُ لسـهامٍ أخـرى أن تُغـرس في هـذا القلبِ المُرهـق حتـى ولـو كانت سـهام الحـبِ الطائشـة. الحـب المنكوب يجعـلُ علاقتنا بالوطـن أبشـع. تُـرى، مـن أنهـكَ بيروت سـوى العشـاق الكُثر وسـهامهم الطائشـة التـي اسـتقرت فـي منتصفِ القلـب؟ لهذا يا صديقـي العزيز، أنتظـرهُ وأنتظرها ولا تـكلّ أو تمـلّ.. ففـي الانتظار وطـنٌ بديل.»

«... تأمريـنَ بالمزيـد مـن الانتظـار يـا مريـم. حسـناً، أتعلميـن، يـكادُ يصـل المنتظـر إلـى مسـتوى الشـهيد. كنـتُ أسـمعهم يـرددونَ مـن أدبيـات الديـن «إن أحـبَّ الأعمـال إلـى اللـه انتظـار الفـرج» ففـي الانتظـار شـيءٌ مـن القدسـية والإخـلاص الشـديدين. الانتظـار جهـادٌ يـا مريـم. تُـرى مـاذا نفعـل كل يـوم سـوى الانتظـار المُكفـن بالعيـش وعاديـات الحيـاة؟؟ سـأنتظر!»

(26)

طـارَ خاتمـا زواج فـي الهـواء بخفةٍ واندفاع ثم سـقطا فـوقَ ضواحي بيروت باتجـاهِ الطُّـرقِ المؤديـة إلـى البقـاع. طـارا فـوقَ (عاليـه) و(سـهلِ عـكار) وكل الـدروب التـي تصلهمـا بالشـام، وكذلـكَ فـوقَ قوافـلِ شـاحناتِ الجيـشِ السـوري المغـادرة باتجـاهِ الحـدود. لقـد رحلـوا فجـراً بعـدَ أن نقلـوا أغراضهـم وأخلـوا مواقعهـم تاركيـن وراءهـم حمولـةً عاطفية عمرهـا ثلاثون عامـاً واعترافاً قسـرياً لا رجعـةَ عنـه بالاتفاقيـات التي حولـت البلادَ إلى شـظايا غير متسـاوية. لربما عثرت هـذه الشـاحنات وهـي تجتازُ الحـدود على أطفـال لبنانيين عائدين من مدارسـهم السـورية سـيراً علـى الأقـدام أو حيوانـات حفظـت الطريـقَ عـن ظهرِ قلـب، تنقلُ علـى ظهورهـا السـلع المتنوعـة فـي الاتجاهيـن. سـوفَ يعثـرونَ أيضاً علـى القرى المتداخلـة والأراضـي الزراعيـة والكثيـر مـن المنافـذ البرية فـي الأودية الشـديدة الانحـدار والوعـورة، وكذلكَ علـى حصيرةِ المصالح المتشـابكة والمشـاعر والهموم الواحـدة وعلـى المصاهـرة والقرابـة والأنسـاب المشـتركة. سـوفَ يعثـرونَ علـى المُهربيـن، فهـذهِ الطـرق ومسـالكها الترابيـة الجبليـة تجعـلُ مـن ضبـطِ التهريـب أمـراً صعبـاً جـداً. حتـى الفلسـطينيون عثـروا فيهـا علـى ضالّتهـم، فسـميت هـذه المنطقـة فيمـا مضـى «فتـح لاند» وذلـكَ لأن رجـال منظمـةِ التحرير والمسـلحين

الفلسطينيين كانوا يصولون ويجولون فيها بكل حرية في بداية السبعينات وينتقلونَ عبرَ الحدود ممرّرين على ظهرِ الحمير والبغال الأسلحة والذخائر والمقاتلين.

سوفَ تجتازُ هذه الشاحنات العسكرية حدوداً افتراضية كمن يحرثُ المياه؛ افتراضية لا بسببٍ من التاريخ فقط ولكن لأن الإسرائيليين هناك يُطلون على 360 كيلومتراً تمتدُّ من بلدةِ شبعا ومزارعها المحتلة في الجنوب الشرقي، مروراً بسلسلةِ جبال لبنان الشرقية وسهول البقاع وصولاً إلى قرى وادي خالد والنهر الكبير الجنوبي في أقصى الشمال.

سوفَ تمرُّ قافلةُ الشاحنات المغادرة بالقربِ من المزارعين اللبنانيين والسوريين على طرفي الحدود يحملون غِلالاً ويُنزلونَ أخرى، وبمئاتِ الأسلاكِ الكهربائية التي تمتدُّ في الاتجاهين مجتازةً الحدود لكي تنيرَ البيوت هنا وهناك، وبملايين الخطوط السلكية واللاسلكية التي تنقلُ تمنّيات الأحبّة وصرخات الفرح أو دموع المشاركة أو همس العشاق. ستمرُّ هذه القوافل العسكرية عائدةً وقد استكانَ في صريرِ عجلاتها ثلاثين عاماً من التّيهِ والحب.

الملحق

(كرونولوجيا التاريخ والحرب والاغتيال)

كرونولوجيا لأهم الأحداث في بلاد الشام:

- 6500 ق. م: أوغاريت أولُ حاضرةٍ موجودة.

- الألفية الرابعة قبل الميلاد: الآثار الأولى لوجودِ حواضر مدنيّة بالقرب من دمشق.

- 2900 ق.م: ظهور مركز تجاري في شرقِ سوريا في مدينة ماري.

- 2600 ق.م: ظهور مركز تجاري في شمالِ سوريا في مدينة إيبلا ليصبحَ منافساً لمركز ماري.

- 2000 ق.م: العمّوريون والكنعانيّون يستقرون على الساحل السوري ويؤسسون مراكز مدنيّة لهم مثل صور وصيدا. كما أنهم أدخلوا اختراعات إلى هذه المنطقة مثل العجلات والكتابة.

- 1200 ق.م: الفينيقيّون يخترعونَ الأبجديّة واللّون الأرجواني الصوري الذي كانَ جزءاً من تجارتهم.

- حوالي 1200 ق.م: هجرة الآراميّين إلى سوريا حيث أسسوا مملكة صغيرة في وسط وشمال سوريا (كنعان). مدينتهم الأساسية آرام موجودة في

منطقةٍ قربَ دمشق الحالية.

- حوالي 1180 ق.م: تهاجم شعوبُ البحر مدينة أوغاريت الكنعانية وبقية الحواضر الساحلية الأخرى. كانَ الدمارُ ساحقاً بحيث لم يبقى من المدينة سوى أطلالها.

- 64م: سوريا السلوقية تصبحُ مقاطعةً رومانية على يدِ بومباي الأكبر، وبدء مرحلة مهمة من الازدهار. وأغريبا يغزو بيروت التي تُسمى المدينة شرفياً بحسب اسم ابنة الامبراطور جوليا:

Colonia Julia Augusta Felix Berytus.

- 50م: يبدأ القديس بولس ثالث رحلاتهِ التبشيرية في صور.

- 41م: يشكل تلاميذ المسيح جماعات في الشتات خصوصاً في دمشق ويُطلق عليهم لأول مرة اسم مسيحيين.

- القرن الثاني للميلاد: تنامي المسيحية في سوريا وتحولها إلى دين قوي.

- 313م: الإمبراطورية الرومانية تعترفُ بالمسيحية وتبدأ ببناءِ الكنائس في سوريا كلها.

- 451م: المارونيّون، وهم طائفة مسيحية كُنّيت بحسب اسم القديس يوحنا مارون، يلجؤون إلى جبالِ لبنان.

- 630م: المَرَدَة، وهم مجموعة من الجماعات المارونية المستقلة، تقطنُ جبلَ لبنان وفي أطرافِ المرتفعات بعد الفتح الإسلامي لسوريا.

- 632-634 م: أتباع الرسول محمد (ص) ينطلقونَ في الجهاد ضدَّ غير المسلمين والخليفة أبو بكر الصدّيق يُدخِل الإسلام إلى المناطق المحيطة بلبنان.

- 661م: بعدَ معركةِ اليرموك، يعيّن الخليفة عمر بن الخطاب، معاوية

بـن أبي سـفيان (مؤسـس الدولـة الأموية)، حاكماً على سـوريا وهـي المنطقة التي تشـتملُ اليـومَ على لبنان الرسـمي.

- 695م: اعتمـاد اللغـة العربيـة فـي كل المعامـلات داخـلَ الإمبراطوريـة الأمويـة بـدلاً مـن اليونانيـة والفارسـية وتَشـيّع أهل جبـل عامل في جنـوب لبنان.

- 759م: عصيـان مُجهـض قـامَ بـه سـكانُ الجبـل اللبنانيـون ضـدَّ الحكـم العباسـي بعـد معاملتهـم السـيئة للشـعبِ الذي يعيشُ فـي المنطقة التي تشـتملُ علـى سـوريا ولبنـان اليوم.

- 970م: الفاطميّـون يسـتقرونَ فـي مصـر ويمدّونَ سـيطرتهم على المنطقة السـاحلية لبلادِ الشـام ودمشق.

- 986م: تحـتَ حكـم الخليفـة الفاطمـي الحاكم بأمر الله، يُولـد دين جديد وينتشـر يُدعـى ديـن التوحيـد (المتعـارف علـى أتباعـه اليـوم باسـم الـدروز أو الموحديـن الـدروز أو بنـي معـروف).

- 1054م: الانشـقاق الكبيـر بيـنَ الكنيسـة الغربيـة الكاثوليكيـة والشـرقية الأرثوذكسـية أيـامَ البابـا ليـون التاسـع.

- 1109م: سـقوط طرابلـس الشـام بيـدِ الصليبييـن وتحويل المدينـة وكل ما يحيـط بها إلـى مقاطعة.

- 1154م: نور الدين يحتلّ دمشق ويوحّد سوريا كلها تحت حكمٍ واحد.

- 1174م: صلاح الدين الأيوبي يستعيدُ دمشق.

- 1250م: فرنسـا تتعهـدُ بحمايـة الموارنـة بوثيقـةٍ موقّعة مـن الملك لويس التاسـع - نهاية الحكم الصليبي وبداية حكم المماليك – واسـتيطان شـيعة سـوريا والعـراق والجزيـرة العربيـة مناطـقَ شـمال البقـاع وكسـروان والجبـال شـمالي بيروت.

- 1291م: المسـلمون الشـيعة والـدروز فـي لبنـان يعلنـونَ العصيـان ضـدّ

المماليك الذين كانوا منشـ ن والمغول.

- 1342م: بطريرك أنطاكية ينتقل إلى دمشق تحتَ اسم أغناطيوس الثاني.

- 1516م: السلطان العثماني سليم الأول يمنحُ الأمير فخر الدين المعني سلطةً شبه مستقلة على لبنان.

- 1570 - 1622م: وصول فترة حكم المعنيين إلى ذروتها مع فخر الدين المعني الثاني ووقوع معركة عنجر بالقربِ من مجدل عنجر بينَ جيشِ فخر الدين المعني الثاني والجيش العثماني الذي كانَ يقودهُ حاكم دمشق مصطفى باشا.

- 1832م: احتلال القوات المصرية لدمشق وغزو إبراهيم بن محمد علي باشا للبنان.

- 1834م: نقلت الإرسالية الأمريكية مطبعتها من مالطا إلى بيروت.

- 1841م: الصراع بين الموارنة والدروز ينفجر. ثورة الموارنة ضد طبقة الإقطاع الفاسدة واستمرار الثورة حتى عام 1858م.

- 1847م: أسسَ اليسوعيّون مطبعتهم (وهي أول مطبعة في بلاد الشام) في بيروت.

- 1860م: مذبحة المسيحيين في دمشق حيثُ قام مسلمون بمعونةِ الجنود الأتراك بقتلِ بضعةِ آلاف من المسيحيين وإحراق منازلهم. لقد أعطت هذه المذابح الفرنسيين المبررَ للتدخل السياسي والعسكري.

- 1866م: إنشاء الكلية السورية الإنجيلية التي أصبحت الجامعة الأمريكية في بيروت من قبل الإرسالية الأمريكية.

- 1869م: فتح قناة السويس يسبّب ضربة لأهمية سورية الاقتصادية.

- 1875م: إنشاء جامعة القدّيس يوسف من قبل اليسوعيّين وهي ما

يُسمى اليوم الجامعة اليس

- 1916م: اتفاقية سايكس - بيكو التقسيمية بين بريطانيا وفرنسا والتي بموجبها قُسّمت بلادُ الهلال الخصيب (بلاد الشام والعراق)، إلى مناطق انتداب تقاسمتها القوى العظمى. وقوع سوريا ولبنان تحتَ الانتداب الفرنسي.

- 1917م: صدور وعد بلفور من قِبلِ الحكومة البريطانية والذي وعدَ بإنشاء دولة قومية مستقلة لليهود في فلسطين.

- 1918م: الفصائل العربية بقيادةِ الأمير فيصل بن الشريف حسين، مدعومةً من القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي، تدخل دمشق وتنهي 400 عام من السيطرة العثمانية، ثم تنتقل إلى فلسطين لتفتحَ الطريق لاحتلال لبنان، وبداية الحديث عن ترسيمِ الحدود في هذه المنطقة بعد تقطيعها.

- 1920م: المجلس الوطني يُعيّن الأمير فيصل ملكاً على سوريا كلها «بحدودها الطبيعية»، من جبال طوروس في تركيا وحتى صحراء سيناء في مصر. في العامِ نفسه، تضعُ فرنسا يدها على الأراضي اللبنانية بعد مؤتمر سان ريمو وتعلن «دولة لبنان الكبير» ثم ترسم حدودها (بضم الساحل والبقاع والجنوب إلى جبل لبنان) وتحتلّ دمشق، وتُرغم الملك فيصل على الفرار خارجَ البلاد، وتقسم سوريا إلى ثلاث مناطق مستقلة مع مناطق منفصلة للعلويين في الساحل والدروز في الجنوب.

- 1925م: الثورة السورية الكبرى ضد الاحتلال الفرنسي بقيادة المجاهد سلطان الأطرش.

- 1936م: توافق فرنسا على استقلالِ سوريا مبدئياً ولكنها توقع اتفاقاً تُكرس فيهِ هيمنتها العسكرية والاقتصادية على البلد.

- 1943م: استقلال لبنان بعدَ ضغطٍ محلي وعالمي.

- 1946م: آخر القطعات الفرنسية تغادر سوريا.

- 1948م: الاحتلال الصهيوني الأول لفلسطين وإعلان دولة إسرائيل وبداية تهجير اللاجئين الفلسطينيين إلى لبنان. شكّل مجموع اللاجئين في الهجرة الأولى حوالي المئةَ ألف فلسطيني إلى الجنوب اللبناني.

- 1949م: اتفاقية الهدنة بين لبنان وإسرائيل في رودس.

- 1951م: اعتمدت الأونروا UNRWA، (وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين التابعة لهيئة الأمم المتحدة)، تعريف اللاجئ الفلسطيني باعتبارهِ الشخص الذي كانَ مسكنه في فلسطين لعامين سبقا نزاعَ 1948م والذي، نتيجة ذلك، خسرَ منزله ووسائل عيشهِ ولجأ إلى البلدان التي تكفلُ الوكالة الإغاثة فيها.

- 1956م: العدوان الثلاثي على مصر (الجولة العربية – الإسرائيلية الثانية)، ووصول أعداد أخرى من اللاجئين الفلسطينيين إلى لبنان في أعقابِ العدوان الثلاثي على مصر قُدّرت بخمسةِ آلاف فلسطيني، منحتهم السلطات اللبنانية حق الإقامة لكنهم حُرموا من خدماتِ الأونروا لعدم قبولها نقلَ سجلاتهم من غزة إلى لبنان، لكنّ أوضاعهم سُوّيت لاحقاً عامي 1962م و1969م.

- 1958م: الوحدة بين سوريا ومصر وترَؤس جمال عبد الناصر للجمهورية المتحدة. اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية التي لم تدم كثيراً بعد تدخل 5000 جندي من البحرية الأمريكية بأمرٍ من الرئيس أيزنهاور وبناءً على طلبِ الرئيس اللبناني كميل شمعون.

- 1958م: يُجمِع أغلبُ الباحثين على أن تأسيسَ حركة فتح قد تمَّ في اللقاء الأول بين مجموعاتٍ من الشباب الفلسطيني في الكويت في تشرين الأول عام 1958م؛ حيثُ أسسوا القاعدة التنظيمية الأولى لحركةِ التحرير الوطني الفلسطيني (فتح).

- 1964م: قضية تحويل مجرى نهر الأردن وبداية مؤتمرات القمة العربية.

- 1964م: تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في أيار (مايو) 1964م في القدس.

- 1967م: القوات الإسرائيلية تحتلّ مرتفعات الجولان السورية خلالَ حربِ الأيام الستة. (الجولة العربية – الإسرائيلية الثالثة)، وتزايد وجود المقاومة الفلسطينية على أرضِ لبنان بعدَ النكسة.

- 1969م: نشاطٌ مكثف للعملِ الفدائي الفلسطيني، مهاجمة إسرائيل لمطارِ بيروت، تضييق السلطات اللبنانية القيودَ على العمل الفلسطيني، (معارك بينَ الجيش اللبناني والفدائيين الفلسطينيين)، اتفاق القاهرة بين منظمةِ التحرير والحكومة اللبنانية تم بموجبهِ الاتفاق على حقِّ العمل والإقامة والتنقل للاجئين الفلسطينيين المقيمين بلبنان، وبمقتضاه تُنشَأ لجانٌ من الفلسطينيين في المخيمات لرعاية مصالح اللاجئين بالتعاون مع السلطات المحلية.

- 1970م: تصادم بينَ السلطات الأردنية والمقاومة الفلسطينية فيما عُرف بأيلول الأسود والذي أدى إلى القضاء على الوجودِ الفلسطيني المُسلح في الأردن في صيف 1971م في معاركِ الأحراش وانتقالهِ إلى لبنان. قيام قمة القاهرة التي أسفرت عن عقدِ مصالحةٍ بينَ عاهل الأردن الملك حسين ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات.

- 1970م: صعود الرئيس الراحل حافظ الأسد إلى سُدّة الرئاسة السورية.

- 1971م: اختراق إسرائيل الحدود اللبنانية لضربِ المقاومة الفلسطينية.

- 1973م: الجولة العربية - الإسرائيلية الرابعة (حرب تشرين / أكتوبر).

- 1975م: حادثة عين الرمانة وبداية الحرب الأهلية اللبنانية.

- 1976م: دخول الجيش السوري إلى لبنان خلالَ الحرب الأهلية للتهدئة.

- 1978م: العدوان الإسرائيلي على لبنان، «حملة الليطاني» وصدور القرار

425 عـن مجلـسِ الأمـن، واسـتكمالِ إسـرائيل السـيطرة علـى الجنـوبِ اللبنانـي، والمواجهـة بيـن القـوات الدوليـة والمقاومة الفلسـطينية فـي صيدا.

- 1981م: إسـرائيل تغـزو لبنـان وتهاجـم الجيـش السـوري فيهـا وكذلـك منظمـة التحريـر فـي بيروت (حـرب حزيران). احتـلال مرتفعات الجـولان من قِبل إسرائيل.

- 1982م: الاجتيـاح الإسـرائيلي للبنـان الـذي أسـفرَ عـن إجبـارِ منظمـةِ التحريـر الفلسـطينية علـى الخـروجِ مـن لبنـان ونقـل مؤسسـاتها العسـكرية إلـى تونـس، ومـن ثـم إغـلاق معظم مؤسسـاتها التي كانت تدعـمُ الكثيرَ مـن اللاجئين، وفـرض علـى مـن يرغـب البقـاءَ فـي لبنـان الخضـوع للسـيطرةِ اللبنانيـة. مذبحـة صابـرا وشـاتيلا إحـدى نتائـج الاجتيـاح.

- 1983م: لبنـان وإسـرائيل تعلنـان حالـةَ العِـداء بينهما بينما تبقـى القوات السـورية فـي لبنـان. انفجـارُ الوضـع العسـكري بيـن الموالين للجنـةِ المركزيـة والمعارضيـن لهـا فـي حركـة فتـح - مـا سُـمّي لاحقـاً بانتفاضـةِ فتـح - فـي كافـةِ المخيمـات وخاصـةً فـي مخيمـات الشـمال اللبنانـي، وسـقوط العديد مـن القتلى فـي صفـوفِ المدنييـن مـن اللاجئيـن الفلسـطينيين نتيجـةً لذلـك.

- 1987م: الرئيـس السـوري حافـظ الأسـد يُرسـل القـوات السـورية للمـرّة الثانيـة إلـى بيـروت لوقـفِ إطلاق النـار فيها. إلغـاء المجلـس النيابـي اللبناني لما جـاءَ فـي اتفـاقِ القاهـرة المُوقّـع عـام 1969م بيـنَ الحكومـة اللبنانيـة ومنظمـةِ التحريـر الفلسـطينية يعنـي إقـراراً بالحقـوقِ الإنسـانية للاجئين الفلسـطينيين في لبنـان، ثـم عـودة الوضع القانوني للاجئين الفلسـطينيين شـبيهاً بمـا كانَ عليهِ قبل العـام 1969م.

- 1990م: دخـول القـوات السـورية إلـى قصـرِ بعبـدا والإطاحـة بالجنـرال ميشـيل عـون فـي 13 تشـرين الأول.

- 1991م: اشتراك سوريا في مؤتمرِ السلام في الشرق الأوسط في مدريد، وقرار الحكومة اللبنانية بفتحِ حوار مع الفلسطينيين بشأنِ الحقوق الاجتماعية للاجئين لكن المفاوضات توقفت.

- 1993-1994م: إبرام اتفاق أوسلو بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية - م.ت.ف. الذي رفضه الفلسطينيون في مخيمات اللاجئين في لبنان فرفعوا الأعلام السوداء في مايو/ أيار 1994م احتجاجاً على الاتفاق الإسرائيلي الفلسطيني. شعرت الحكومة اللبنانية بالخطر من أن ينتهي الاتفاق بالتوطين الدائم للاجئين الفلسطينيين في أماكن وجودهم الحالية.

- 1995م: تعديلات وأحكام على القانون اللبناني المُنظم لعملِ الأجانب شملت أكثرَ من 70 مهنة لا يحقّ لغيرِ المواطنين اللبنانيين ممارستها، وضرورة الحصول على رخصةِ عمل من الجهاتِ المختصة لممارسةِ أية مهنة. لم تستثني هذهِ الأحكام الوضعَ الخاص للاجئين الفلسطينيين في لبنان.

- 1999م: المفاوضات حولَ مرتفعات الجولان تبدأ مع إسرائيل، وصدور قانون لمجلس النواب اللبناني يمنعُ حقّ التملك العقاري لمَن لا يحملُ جنسية صادرة عن دولة معترف بها وتُرجم على أن الفلسطينيين هم المعنيون بهذا القانون. أشارت بعض الإحصاءات اللبنانية شبه الرسمية إلى أن أكثر من 50% من اللاجئين الفلسطينيين يحصلون على دخلٍ يقلّ عن 90 دولاراً شهرياً ويعيشون تحتَ خطِّ الفقر، وتستعيضُ الحكومة اللبنانية عن العمالة الفلسطينية الزهيدة بالعمالةِ السوريةِ الوافدة التي يُقدّر عددها بأكثر من 100 ألف عامل.

- 2001م: القوات السورية تغادر بيروت وتعيدُ انتشارها في أجزاء أخرى من لبنان.

- 2004م: مجلس الأمن يطلبُ من القوات الأجنبية مغادرةَ لبنان.

- 2005م: مقتل رفيق الحريري رئيس الوزراء اللبناني الأسبق وخروج الجيش السوري من لبنان في نيسان في نفس العام.

كرونولوجيا لشهر شباط / آذار/ نيسان 2005، منذ اغتيال الحريري وحتى انسحاب الجيش السوري:

- الثالث من فبراير/شباط: دعَت المعارضة للمرةِ الأولى سوريا إلى الانسحاب الكامل من لبنان.

- 14 فبراير/شباط: انفجار ضخم استهدفَ موكب الحريري في منطقةِ السان جورج في قلبِ العاصمة اللبنانية بيروت، قُتلَ على إثرهِ رئيسُ الوزراء على الفور ومعه عشرون آخرون من بينهم عدد من مرافقيهِ والمارّة كما جُرحَ العشرات.

- 14 فبراير/شباط: المعارضة تجتمعُ في منزلِ الحريري بعدَ ساعاتٍ على اغتيالهِ وتحمّل الأجهزة الأمنية اللبنانية السورية مسؤولية اغتيال الحريري، كما أعلنت المعارضة رفضها مشاركة السلطة في مأتمِ الحريري.

- 16 فبراير/شباط: تشييع رفيق الحريري في مأتمٍ شعبي ضخم.

- 18 فبراير/شباط: المعارضة تجتمعُ في البريستول وتعلن قيامَ «انتفاضة الاستقلال» حتى الانسحاب السوري الكامل.

- 21 فبراير/شباط: وصول فريق لجنةِ تقصي الحقائق إلى لبنان بتكليفٍ من الأمين العام للأمم المتحدة حيثُ مكثت اللجنة شهراً لتصدر من بعدها تقريراً يُحمّل سوريا مسؤولية التوتر الذي سبقَ اغتيال الحريري، ولتتهم الأجهزة الأمنية اللبنانية بتدمير وتزوير أدلّةٍ في مسرحِ الجريمة، كما أوصت بقيامِ تحقيقٍ دولي.

- 28 فبراير/شباط: تظاهرات عارمة في ساحةِ الشهداء شاركَ فيها عشراتُ الآلاف واكبت جلسةً لمجلس النواب لمناقشة الاغتيالات السياسية بطلبٍ من

المعارضة، وعمر كرامي رئيس الحكومة في تلكَ الفترة يُقدّم استقالته في الجزء الثاني من الجلسة.

- 2 مارس/آذار: المعارضة تجتمعُ في المختارة وتطالبُ بإعلانٍ رسمي سوريا بالانسحاب الكامل وإقالة كل قادة الأجهزة الأمنية.

- 3 مارس/آذار: الرئيسُ السوري بشار الأسد يعلن في كلمةٍ أمامَ مجلسِ الشعب الالتزام بالقرار 1559 (القرار الدولي الذي صدرَ عن مجلسِ الأمن في سبتمبر/أيلول عام 2004م الذي دعا سوريا إلى الانسحاب الكامل من لبنان).

- 7 مارس/آذار: المجلس الأعلى اللبناني - السوري يجتمعُ برئاسة الرئيسين السوري واللبناني ويقرّر إعادة الانتشار وفق اتفاق الطائف أي حتى البقاع في مرحلة أولى.

- 8 مارس/آذار: مظاهرة حاشدة لحزب الله في ساحة رياض الصلح والسيد حسن نصر الله يشكرُ الرئيس السوري بشّار الأسد على تضحياتِ سوريا في لبنان.

- 14 مارس/آذار: في ذكرى مرور شهر على اغتيال الحريري، مسيرة مليونية للمعارضة تدعو لخروج سوريا الكامل من لبنان.

- 16 مارس/آذار: إعلان الانتهاء من المرحلة الأولى للانسحاب السوري باتجاه البقاع.

- 16 مارس/آذار: الرئيس الأمريكي جورج بوش يستقبلُ في البيت الأبيض البطريرك الماروني نصر الله صفير.

- 18 مارس/آذار: انفجار عبوة ناسفة في منطقة (نيو جديدة) قرب بيروت.

- 23 مارس/آذار: انفجار عبوة ناسفة في منطقة (الكسليك).

- 26 مارس/آذار: انفجار ثالث في (سد البوشرية).

- 29 مـارس/آذار: كرامـي يعتـذر عـن تأليـفِ الحكومـة بعـدَ لقائـهِ رئيـس مجلـس النـواب اللبنانـي نبيـه بـري.

- 1 أبريل/نيسان: انفجار عبوة ناسفة رابعة في (سنتر رزق ببرمانا).

- 7 أبريل/نيسـان: مجلـس الأمـن يُصدر القرار 1595 القاضي بتشـكيل لجنةِ تحقيـقٍ دولية فـي جريمةِ اغتيال رفيـق الحريري.

- 14 أبريل/نيسان: نجيب ميقاتي يُكلَّف بتشكيل الحكومة.

- 26 أبريل/نيسـان: الواحـدة والنصـف بعـد الظهـر سـوريا تُكمل انسـحابها مـن لبنان.